رواية

جوكا رينيرس تيرون

الموت والنيزك

ترجمة:
سعيد بنعبد الواحد

مكتبة

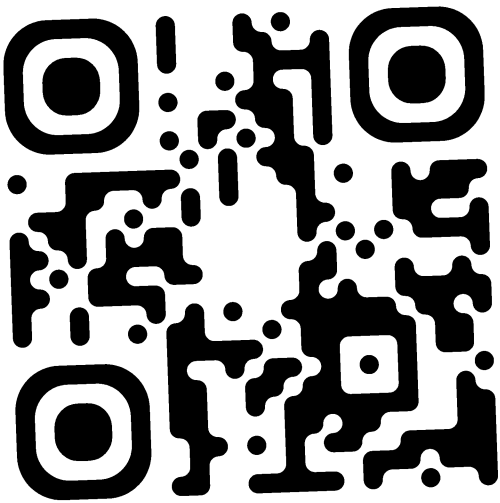

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

الموت والنيزك
جوكا رينيرس تيرون

Author: Joca Reiners Terron

A Morte E O Meteoro

© Copyright

Translated from Portuguese by:
Said Benabdelouahed

Book Design:
Sarwar Murad

Book Cover Design:
Markly
www.markly.net

ترجمها عن البرتغالية:
سعيد بنعبد الواحد

الإخراج الفني:
سرور مراد

تصميم الغلاف:
ماركلي

الطبعة الأولى | أكتوبر 2021
ISBN: 978-9921-712-46-9
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية – دولة الكويت:
1699-2021

دار الخان للنشر والتوزيع
+965 99462291 / +965 51088000
@DarAlkhan_kw
info@daralkhan.com

مكتبة
t.me/soramnqraa

مكتبة
t.me/soramnqraa

رواية

الموت والنيزك

جوكا رينيرس تيرون

ترجمة

سعيد بنعبد الواحد

2021

Author: Joca Reiners Terron

A Morte E O Meteoro

2021

إن بقي في هذا العالم شخص ما
يحب الأسرار، أطلب منه أو منها،
بكل ودّ وامتنان، أن يقتسم
أيضاً إهداء هذا الكتاب
مع مصريّة كْراتو الغامضة*.

* عبارة «مصريّة كُراتو» هي إشارة غامضة من الكاتب لشخص ما أو حادث شخصي. وقد ذكرها في العديد من كتبه ومقابلاته، وكُراتو مدينة برازيلية تُعرف أيضاً باسم «سيبارا» (المترجم).

ليس هناك من إنسان مَلِك على أي شيء.

هنود الحواضر الكبرى

الشرُّ العظيم ١١

محوُ الاسم العائلي أعالي نهر بوروس، ١٩٨٠ ٤٧

لن يكون هناك موت آخر في لابْريا، ١٩٨٠-١٩٨١ ٨٣

علمُ الكونيات في واكساكا، بَعْد ونهاية ١٢٣

الشرُّ العظيم

مكتبة
t.me/soramnqraa

إنني أنظر اليوم إلى ما حدث على أنه النهاية المحتومة للهاجس الاستعماري في **الأمريكيَّتَيْن**، وكنتُ أفضلُ أن يكون كذبة أخرى من الأكاذيب التي يمليها المنتصرون، وليس الحقيقة التي تبكيها هزيمةٌ أخرى، نهائية هذه المرة من دون شك. في البداية، كان من المفروض أن يذهب الخمسون كاجابُّوكوجي إلى كندا. وبما أنهم غادروا غابة الأمازون، مكان أشدّ حراً من الجحيم حيث لم تعد الأمطار الاستوائية تسقط بغزارة كما في الماضي، فإنه سيكون من الصعب أن يتكيّفوا مع قسوة درجات الحرارة دون الصفر في المناخ الكندي. هكذا، انتهى بهم الأمر في واكساكا.

إذا لم تكن المنطقة القاحلة في السهل صالحة لهم، فلا شيء في العالم يشبه غابة الأمازون أو ما تبقى منها، بضع عشرات من الهكتارات بها أشجار محتضرة في طريقها لتحترق تحت أشعة الشمس. كان الكاجابُّوكوجي قبيلة معزولة ترفض أي اتصال مع الإنسان الأبيض، يعيشون في وسط طبيعي قاحل

دون استعداد لذلك. سيشكل مجيئهم إلى هنا فرقاً كبيراً. كانوا معرضين للمطاردة في مكان ميلادهم. وكان الحل هو نقلهم إلى جبال هواوتلا الأبدية.

لم يكن عددهم يتجاوز خمسين كاجابُّوكوجياً، وهم آخر من تبقى من شعبهم، الرؤوس الخمسون الناجية المطلوبة مقابل مكافأة مالية. وقد كلّفني بهذا الملف الكاتبُ الفدرالي لشؤون الهجرة، غبيٌّ عيّنهُ الحزبُ الثوري المؤسسي في هذا المنصب. وربما يكون تعييني على رأس هذه المهمة البصيص النهائي في الحياة الدماغية الرتيبة لهذا المحروم من الخلايا العصبية، ومُسوِّغاً نهائياً ويائساً لوجوده العقيم.

كنتُ وقتها أستلذُّ بمعاناتي وأنا أشتغل موظفاً حكومياً مُكوّماً في مكتب تابع للجنة الوطنية لتنمية السكان الأصليين، في منتصف الطريق بين المروحة وخزانة الوثائق، وعلى مسافة ذراع واحدة من الطاولة حيث ترمسُ قهوة يفوح بآخر زفراته. كان والداي قد توفّيا قبل بضعة أشهر، كما لو أنهما اتفقا على ذلك كي يُعكّرا صفو حياتي مرة واحدة وإلى الأبد. هكذا، بالإضافة إلى أنني قريبُ العهد باليُتم ووريثٌ لمنزل كبير في وسط الحي التاريخي لمدينة واكساكا، كنتُ كذلك عازباً في منتصف العمر، ولم يعد لي أمل في الزواج أو إنجاب أطفال.

في تلك الأيام بدا لي أنَّ ميزة تلك التجربة، والمشاركة بحلقة من مسلسل شقاء عمليات النفي السياسي (ربما هي أكثر

الحالات غير المنتظرة وأكثرها جذرية في هذه الحكاية الطويلة جداً، بل العبثية، هروبٌ من ذلك السجن القاريّ الذي تُشكّلُه أمريكا الجنوبية) قد تكون طريقة للتخفيف من الحزن والوحدة التي كنت فيها. كانت، من يدري، آخر فرصة أمامي كي أعتني بأحد ما، وأمنح معنى ما لحياتي ولحياة أشخاص آخرين.

خلاصة القول، كان الأمر يتعلق بآخر رهان على نجاة آخر خمسين فرداً من الكاجابُّوكوجي انطلاقاً من آخر فكرة (كانت أيضاً فكرته الأولى والوحيدة) طرحها سياسي رديء، وأنجزها آخر متخصص في منطقة السّرْتاوْ وعجوز من الهنود المازاتيكو ترمّلَ مؤخراً وكان يمثل آخر فرد من سلالته الشامانية. بدوري، كنت أمام حل أخير، ولم يكن هناك مجال للخطأ.

كنتُ أعدُّ نفسي مؤهلاً نوعاً ما لترأس تلك المهمة، بوصفي عالمَ أنثروبولوجيا مهتم باللغات المنقرضة، يتمثل عمله بكامله تقريباً -ومنذ عدة سنوات- في إرسال حافلات مهترئة تحمل عمالاً فلاحين إلى المنطقة الزراعية، أو، بدرجة أقل أو أكثر، في ملء شهادات ميلاد أو وفاة بأعداد كبيرة. سيكون ذلك هو بحثي الوحيد حول لغة عِرْق في طريق الانقراض، مع إضافة أمْلاها القدرُ، أو سوء الحظ (لا أعرفُ اليوم إن كنتُ متأكداً من ذلك) تتمثل في التعايش مع المتبقين النهائيين منهم. وفوق هذا كله، كنتُ بحاجة إلى أصدقاء، ربما أكثر من الكاجابُّوكوجي أنفسهم.

وِفْق هذا الوصف، يمكن أن يبدو المشروع مغرياً، لكنَّ الكاتب المكلف بشؤون الهجرة لم يطرح قطّ فكرةً واحدة جديرة بهذا الاسم، وكان على خطأ مرة أخرى: كانت الوضعية برُمّتها محكوماً عليها بأخطاء في سوء التقدير. كان المتورطون فيها، بمَن فيهم أنا، مدفوعين باليأس؛ لأنه إن كان ثمة شيء لا يمكن أن يُنسب إلى شخصٍ واحد في هذه القضية، فهو الذّنْب. كانت النهاية مكتوبة، إلا أنه لم يعد هناك من أحد يعرف القراءة. لقد حملتنا الحكايةُ إلى هذه النقطة العمياء، وكما هو الحال في أيّ وضعية مشابهة، كان لا بد من توجيه اللّوم إلى النوع البشري، أو على الأقل إلى تلك الفئة التي ما تزال تستحق أن تُحدّد وفق هذا الوصف المرن جداً: إلى البشر المُتّسمين بالإنسانية، إن صحَّ التعبير، أو إلى أولئك الحزانى الذي نجوا من الاستخفاف.

حظِيَ نفْيُ خمسين من السكان الأصليين باهتمام لا بأس به من وسائل الإعلام الدولية. وباءٌ من صُوَر الكاجابُّوكوجي بملابسهم الرسمية القديمة جداً، التي كانت في ملك أسلافهم، المحبوكة بتبن القُرّاص، وهم يمرون عبر كاشف المعادن (قمة عدم الانسجام) لوَّثَ نشرات الأخبار لمدة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع. ويُعزى هذا الاهتمام إلى الخطاب الذي يعج بالإغراءات التي يحبها جمهور المشاهدين: خبثٌ لا يمكن إنكاره، عنفٌ لا مُسوِّغ له، وأخيراً، مثل زينة فوق الكعكة، لغزٌ لا حلّ له. فور ذلك، اختفى كل شيء من الذاكرة العامة خلال

أيام قليلة، دون أن يترك آثاراً.

كانت تلك أول حالة في تاريخ الاستعمار يقوم فيها شعب من الهنود الأصليين في أمريكا، خمسون كاجابُّوكوجي من الناجين، بطلب لجوء سياسي في بلد آخر. كانوا آخر الناطقين بلغة شبه مجهولة، لغة خلاسيّة غريبة كانت، رغم احتوائها على شيء من لهجة ييبّا ماهْسا. حين تسمعُ لأول مرة، تبدو غريبة عن المكان، وهنا تكمن نقط اختلافها عن أكثر من مائتيْ لغة من اللغات الأصلية في البرازيل قبل عدة عقود، تُشكّلُ وعاءً لأعراق لم يعد لها وجود. طلبَ الكاجابُّوكوجي اللجوء، وأخذوا كل الناجين، لأن الوسط الذي يتحدّرون منه، غابة الأمازون، كان ميتاً، وكان يتعرضون إلى المطاردة من الدولة وممَّن يسهرون على إبادتهم من عملائها: الباحثون عن الذهب، تُجّار الخشب، كبار ملاك الأراضي رفقة بلطجيّتهم المعتادة، رجال الشرطة، العسكريون والحكام.

ولم يكن هذا الاختيار الأقصى ممكناً إلا بفضل المفاوضات التي أجراها مع الدولة بووافينْتورا، متخصص في شؤون السّرتاوْ من «المؤسسة الوطنية لهنود البرازيل»، رجلٌ كرّس حياته للدفاع عن الكاجابُّوكوجي، وزارَ واكساكا عشية بداية رحلة من تشملهم حمايتُه نحو المنفى.

خلال عدة سنوات، كان بووافينْتورا نموذجاً يحتذى به في التعامل مع الشعوب المعزولة. كان يُعرف عنه أنه بالكاد تابع

دراسة نظامية، وهو ربما ما ترتَّب عنه إنتاجه شبه المنعدم في مجال الدراسات الإثنوغرافية، وشجاعته الميدانية. في مرحلة معينة من حياته، انعزلَ في أعالي نهر بوروس، مثل الهنود الذين كان يدافع عنهم، فأصبح رمزاً لعالم يتعرض إلى دمار سريع، خاصة بسبب اندثار حدود محميات الشعوب الأصلية وإغلاق القديمة منها. ولم يساهم الصراع القاريّ بين تحالف البرازيل وكولومبيا ضد فنزويلا سوى في تفاقم الوضع. شيئاً فشيئاً، توقفت حكاياته الخيالية في محاربة الغزاة أراضي الكاجابُّوكوجي، وهو ما عُدّ بالخطأ أمراً إيجابياً. على أيّ حال، إن لم يعد يظهر مزيدٌ من العناوين الكارثية حول إبادة السكان الأصليين، فربما لأن الكاجابُّوكوجي كانوا ما يزالون أحياء، وربما كان بووافينْتورا ما يزال يطفو فوق مركبه في أفق النهر، شبه ممتزج بالمناظر الأمازونية التي رمت به نحو الشهرة. لكن، إذا كان عادة للسذاجة نهاية، فإنّ الطمع والعنف لا حدود لهما. عندما ظهرت، في النهاية، أخبار عن بووافينْتورا، جاء ذلك عن طريق المُصوّرة البريطانية سيلفيا ماريا فولير، أكبر مسؤولة عن ذكر اسمه دائماً ملفوفاً في شيء من الغموض.

اتصالاتُ سيلفيا ماريا فولير في قسم الأنثروبولوجيا بالجامعة الوطنية المستقلة في المكسيك قادتْها إلى الكاتب الفيدرالي في شؤون الهجرة، الذي حرّكَ رئيسي، رجلٌ كان حضوره في المكتب يتلخص في صورة أفاتار شعار فريق «الصليب الأزرق»، التي كانت تظهر من حين إلى آخر على

شاشة هاتفي عندما يبعث لي رسائل نصية. في تلك المناسبة، كان الأمر يتعلق بوصول بووافينْتورا الوشيك إلى واكساكا. ظلَّ شعار «الصليب الأزرق» ينبضُ، مؤكداً أنَّ مهمة مرافقة صاحبنا لن تكون بالسهلة. إنه رجل يتجاوز الثمانين سنة ويتمتع بسمعة شخص صعب المراس، كتَبَ رئيسي. بالإضافة إلى هذا، أوضحت السيدة فولير أنه لم يكن يتمتع بصحة جيدة. في رأيها، ربما يكون من اللائق جداً ألاّ يسافر، لكن بووافينْتورا كان يرغب في معرفة المنطقة الجبلية المخصصة للهنود. سبق له أن زار كندا، تابع أفاتار «الصليب الأزرق»، ويبدو أنه غادر البلاد شبه مضطرب.

أمام استحالة الحصول على دعم من الدول المتاخمة (حالت حربٌ من ثماني سنواتٍ دون حصول أي حوار) التي كانت محيطاتها البيئية والإثنية تشابه ظروف عيش الكاجابُّوكوجي في حوض نهر بوروس جنوب الأمازون، أو قريباً مما كان ممكناً مصادفته قبل عقدين من الزمن، قبل تدمير المجال البيئي والإثني في الأمازون، كان بووافينْتورا، المكلف بالبحث عن ملجأ سياسي للهنود، قد قبل العرض الذي تقدمت به كندا، وكانت في البداية هي البلد الوحيد المستعد لاستقبالهم. تردّدَ أفاتار رئيسي بشكل طفيف (تأخره في رقن الرسالة التالية كان يوحي بذلك)، وقبل أن يختفي دون أن يودع كعادته، حكى لي ما وقع أثناء الرحلة وِفْق الرواية التي قدمتها سيلفيا ماريا فولير إلى الكاتب الفيدرالي.

وصل بووافينْتورا إلى أوتاوا في عزّ فصل الشتاء، كتبَ رئيسي. بملابس لا تقيه من شدّة البرد القاسي، وهو ما يزال في طريقه إلى الفندق، قرّرَ أن يقوم بالمستحيل كي يحصل للهنود الكاجابُّوكوجي على وجهة أكثر دفئاً. لم يتمكن حتى من فتح حقيبته. في اليوم التالي، بعد أن تسكّع عبر الأرصفة المغطاة بالثلج، أمضى ما يناهز ساعة أمام شاشة كبيرة مشتعلة داخل واجهة أحد المحلات كانت تعكس الحديقة وراء ظهره، التي تعج بأشجار الدّلب العارية من الأوراق. في انعكاس الواجهة، اكتسبت هذه الكآبةُ الثلجية شكلاً أكثر برودة. تفحّصَ ناطحات السحاب المعدنية في الأفق، التي كان يعرف أنها تعج بموظفين حريصين على الاغتناء على المواد الأولية القليلة التي مازالت موجودة في العالم. لم تكن تبدو بنايات من صنع أيادي البشر. في النهاية، لم يحضر الاجتماع الحاسم الذي عقدتْهُ «مُنظمةُ الدول الأمريكية» مع موظفين تابعين لوزارة حقوق الإنسان في كندا.

أمام واجهة المحلّ، كان بووافينْتورا منهمكاً في مشاهدة تقرير عن إرسال بعثة صينية إلى المريخ انطلاقاً من محطة بايكونور الفضائية، في كازاخستان. كان ذلك هو كل ما قام به في أوتاوا: تابعَ استعداد زوجيْن من رواد الفضاء الصينيين باسميْن داخل أجهزة لمحاكاة الجاذبية، وصوراً لمحطة المريخ تحمل رمز البعثة مطبوعاً على جانبها، رسمٌ شبهُ ممحيّ حملَ إليه ذكرى غامضة بدورها لشيء كان يُفضّل نسيانه. على

الشاشة، كانت ترجمة نصّية باللغة الإنجليزية تقول: إنَّ تلك البعثة لم تكن هي أول محاولة لإرسال بعثة فيها رواد فضاء نحو المريخ، لكن ربما كانت هي الأخيرة. عرضت الكاميرا رائدة الفضاء وقد تجردت من الجزء العلوي من لباسها الفضائي، قميصها المبلل بالعرق وبطاقة الهوية التي تتدلى من عنقها، فكانت تبدو أقل سناً من قبل، تكاد تكون طفلة بجواربها البرتقالية ذات الكُريَّات البيضاء. جالسةً إلى مائدة حجرة الطعام، كانت الرائدة الفضائية تتناول أكلها، طبق من المعكرونة، وما إن اقتربت العدسة من وجهها المُدوّر حتى ابتسمت للكاميرا. أثناء تلك الابتسامة الملتوية، كان الركن الأيسر من الشفتين يرتفع قليلاً فوق الركن الأيمن، ويُبرز بياضُ أسنانها المتناسق. لحظتها، تراجع بووافينْتورا خطوتين إلى الوراء.

بعد ذلك، استقلّ سيارة أجرة نحو المطار، وهو يشعر باليأس، يأسٌ خفَّ قليلاً عندما استمرَّ في متابعة التقرير التلفزي باهتمام مُسلّ وبأسئلة متزايدة بينما كان ينتظر الركوب، ثم سرعان ما تحوّل إلى شيء ما يُشبه الأمل. بعد ذلك أخذ أول رحلة جوية عائداً إلى ساوْ باوْلو، في الوقت المناسب لأخذ رحلة ربْط إلى بْرازيلْيا، قال في الأخير: أفاتارُ رئيسي، قبل أن يختفي نهائياً من الشاشة.

منغمساً في سُحب المحيط الأطلسي، غفا بووافينْتورا وحلم بماريا سابينا. في فترة شبابه، حضر لقاءاً مثيراً مع

الشامانية الواكْساكية خلال إحدى الندوات، وجعله ظهورُها المضطرب في حُلمه (حين استيقظ، اكتشف أنَّ الطائرة كانت تواجه عاصفة) يتذكر اتصالات صديقته سيلفيا ماريا فولير في الجامعة الوطنية المستقلة في المكسيك. حين وصل، وما أن اصطدمت جزمتاهُ المثقوبتان بألواح المكتب المتناثرة في «المؤسسة الوطنية لشؤون الهنود» حيث كان يؤدي واجبه المهني مؤخراً، حتى لا حظ أنَّ أرشيفه الذي يحوي سنوات من البحث قد اختفى، كما اختفى كرسي طاولة الكتابة، التي كان غطاؤها المقلوب وغير النافع يعكس نظراته من دون معنى. ورغم أنه كان يعلم أنَّ المكتب سوف يُغلق نهائياً بعد بضعة أيام، فقد بدا له الأمر مثيراً للريبة. لم تكن «المؤسسة الوطنية لشؤون الهنود» أكثر من مستودع كانت الدولة تضع فيه أشياء قديمة، كان هو أيضاً يدخل في عدادها. على أيّ حال، باستثناء الخط الهاتفي الذي كان مشتغلاً -تُحفةٌ حقيقية من الماضي- كان المكتبُ كأنه قد أغلق منذ سنوات.

عندما تحدَّث مع سيلفيا ماريا فولير، سرعان ما بدت واكساكا اختياراً واعداً من دون شك، لأنها ليست بعيدة عن أمريكا الوسطى، لكن أيضاً بسبب نجاعة سياستنا في تدبير شؤون السكان الأصليين، التي استمرت لعدة عقود. ذكّرت ماريا سابينا بووافينْتورا بذلك في الحلم، فحطَّ في مطار عاصمة الولاية بعد شهر تقريباً. مع بداية الربيع، حيث كنتُ أنتظرهُ، القبعة بين يديّ ومفتاح سيارة جيب في جيبي، كشفَ لي عن

حلمه بماريا سابينا عندما كُنا نسير باتجاه الشمال. وبالإضافة إلى سروره باستعدادي لاستقباله، عَدَّ من باب الفأل الحسن أنّ ماريا سابينا كانت أيضا أستاذتي. لم يكن ليُولي ذلك الحلم اهتماماً أكبر لو أنه حدث فوق اليابسة. ومع ذلك، ينبغي إيلاء اهتمام أكبر للأحلام التي يراها المرء وهو يحلق فوق سطح هذا الكوكب: وفي حلمي، قال بووافينْتورا، هي أشارت لي، دون أيَّ إمكانية للخطأ، إلى الندب الأسود في خريطة واكساسكا الذي يمثل جبال هواوتلا، أرض الهنود المازاتيكو.

إنه المكان المثالي، لا أدري كيف لم أفكر فيه من قبل؟ ختمَ بووافينْتورا قوله. بعينيْن مركزتيْن على الطريق تجنباً لخطر خروج أي حيوان ليلي يمر أمامنا، عاجزاً عن النظر مباشرة إلى رفيق سفري الجالس في مقعد الراكب، كنتُ مُضطرّاً أن أكتفي بصوته الأجشّ الذي يتردّد صداهُ على اليمين وأنا أتذكر أنني واجهتُ، ليس من دون شيء من الخجل، آثار الدمار على وجهه عندما أخذت الحقيبة من يده عند وصوله. عند أول لقاء له مع الكاجابُّوكوجي في شبابه، كان قد أصيب بسهم في وجهه. كان يحافظ على توازنه واقفاً فوق زورق ينسابُ عبر رافد ضيق من روافد نهر بوروس عندما اخترق سهمٌ خدّيْه من جهة إلى أخرى، ممزقاً لسانه. منذئذٍ، أخذ فكرةً عمّا يمكن أن يشعر به القنفذ، كما اعتاد أن يحكي لمن يتعرف عليه لأول مرة. بسبب ذلك الحادث، ونظراً إلى لكنتهِ العرجاء حين يتحدث اللغة الإسبانية، لم يكن دائماً من السهل فهم ما يقوله.

كانت المقاطع الأخيرة من جُمل بووافينْتورا تضيع في برزخ بين القول والهمس الذي يفنى في الصمت.

بدأت نباتات الجبال تصير كثيفة عندما تجاوزنا حدود المحمية، ومقودُ سيارة جيب يهتزُّ تحت المجهود الذي أمارسُه بيديّ بغية تجاوز ما يعتري الطريق من حُفر. بحركات تنم عن الارتياح، متكئاً على النافذة، لا حظَ بووافينْتورا الأشجارَ التي يتجاوزُ طولها ستين متراً وهي بعيدة جداً عن نباتات البروموليات والزهور السحلبيّة التي تمدُّ ظلالها فوق الأدغال تحت ضوء مصابيح السيارة. في نظره، كان ذلك الوسط يشكل المحمية التي وُعد بها رجال الكاجابُّوكوجي، أصدقاؤه منذ سنوات طويلة والذين، بشكل غريب، لم يتحدث معهم قط، وبلغت معاناتهم وهم يرون أرضهم تتعرض للغزو وشعبهم للإبادة في أقصى حدودها بسبب أمْرٍ كان يُعرّضُ للخطر المعنى الحقيقي لعبارة «محمية سكان أصليين»، حسب بووافينْتورا، لأنّه لم يتبق بينهم أي طفل. والمأساة الكبرى أنه لم تتبق أيّ امرأة أيضاً. لم يكن المستقبل يخبئ لهم أي شيء ذا شأن.

كانت إبادة الكاجابُّوكوجي قد اندلعت في نهاية القرن التاسع عشر، بعد نجاحهم غير المحتمل جداً في النجاة من أربعة قرون من حضور الإنسان الأبيض في القارة، مما كان يجبرهم على مواصلة التوغل، كل سنة، كل شهر، كل يوم وساعة، مسافات أكبر وأكبر وسط الغابة، في هروب مستمر من المطاردة المشؤومة لأوبئة الحصبة والحمى التي جلبها

الغزاة. بعد أن اقتربوا من مُسْتخلصي المطّاط للحصول على أدوات معدنية -معاولٌ، ومجارفٌ ومناجلٌ يستعملونها في مزارع المانيوك والبطاطا الحلوة، وهي الأدوات التي صاروا يعتمدون عليها منذ أن اكتشفوها- قضت الأمراضُ على معظم أفراد المجموعة.

أدّت بهم الوفيات إلى العزلة التامة، قال بووافينْتورا: بينما كنَّا نقطع أزقة مقفرة في قرية المازاتيكو، حيث سنلتقي باللجنة التي تدير المحمية كي نناقش مسألة استقبال المنفيين. إنَّ تاريخ الشعب المعروف إلى حدود اليوم باسم «كاجابُّوكوجي» كان مليئاً بالأحداث: حين هاجمهم الأعداء، قام الناجون منهم، الذين ينتمون إلى أمة أكبر بكثير تتشكل من عدة شعوب، ويُسمّيهم المهتمون بشؤون السّرْتاوْ «كوجي»، بالاتحاد مع من تبقى من قبيلة أخرى ثم اختفوا في أعماق الغابة لمدة قرن من الزمن. ولم يظهر لهم أثر سوى سنة ١٩٨٠، بفضل عمل بووافينْتورا.

دون أن يزعج نفسه بطلب الإذن، أشْعلَ سيجارةً ملفوفة قبل أن نترجّلَ من سيارة جيب الرابضة، ولاحظَ الساحة، حيث كانت أشباحٌ تبدأ تجوّلها اليومي وسط الضباب، حيث تبرز تارة جمرة سيجارة من غيمة، وتارة حافة رمادية من لحاف أو رفّ واسع لقبعة من تبن فوق رأس مقطوعة تطفو في هواء صباح جليدي. كانت أشباحاً نَسِيها اللّيلُ، ستختفي نهائياً بمجرد بزوغ الشمس خلف الجبال. كان فصل الشتاء قد انتهى، لكن

البرد ظلّ مستمراً في الساعات الأولى من الصباح. لا يمكن مقارنته مع شدّة الصِّر الجليدي في كندا، لكنَّ العُلو والغطاء النباتي كانا يحتفظان بحرارة هواوتلا غير بعيدة عن الصفر.

عبَرْنا الساحة بينما كانت تلتحمُ الآن أعضاءُ الأجسام المتفرقة من قبلُ بسبب الضباب، لتتّخذَ شكل عجائز ومُتسوّلين سرعان ما اكتسبوا وجوهاً نخرَها الفقرُ والزمن، والمرض، والمطاردة التي عانت منها شعوب المكسيك الأصلية لآلاف السنين. جاء طفلٌ بعينين لامعتيْن، لم أميّز جنسه، فلمسَ يدي وطلب مالاً يشتري به ما يطعم به نفسه. في الزاوية القريبة، كانت امرأة تشوي رقائق خبز رأيناها أولاً بأنفيْنا قبل عيوننا، ثم تابعنا السير والطفل الجائع يتعقبنا. لم نأكل أي شيء منذ أن غادرنا المطار.

عندما بدأ بووافينْتورا عمله في ملاحظة الكاجابُّوكوجي، استمرّ في اتّباع مبدأ عدم الاحتكاك بالشعوب المنعزلة الذي لم تتبنّهُ «المؤسسة الوطنية لشؤون الهنود» إلا بعد سنوات، عندما كان قد أصبح عجوزاً، وفقط بعد أن تعرضت شعوب بكاملها للإبادة بسبب حُمّى هيِّنة نقلها جسدٌ مسيحي ومناهض لنظرية التطور لأحد المبشرين البروتستانتيين المفعمين بنوايا حسنة، لكن بفيروسات قاتلة أيضاً. في تلك الظروف، كانت عطسةٌ واحدة أكثر دماراً من إعصار، فتُسقط الآلاف فيما يشبه تأثيرَ دومينو، عبثياً وقاسياً، يدعمُه إلهٌ غائب على الدوام.

كان خوان إلْنيغْرو، زعيم المازاتيكو، ينتظرنا في المكتب الذي يُستعملُ مركزاً إدارياً للطائفة. كان وحده، محتبياً فوق حصير على الأرض، فدعانا كي نرافقه بحركات ودّية كان بطؤها يشي بسنّه. منذ موت ماريا سابينا، هو من كان يُنسّقُ الحوار مع الدولة ووكالاتها الحكومية، متأقلماً كيفما استطاع مع تقلبات السياسة الوطنية وأحواله الشخصية عبر الزمن، التي كانت تبدو له وقتئذ شبيهة بالمحيط، لكنها محيط من دون ضفاف يمكن أن يرسو فيها، لكثرة السنوات التي قضاها في هذا العالم. كان شاماناً، لذا ربما قد يكون من الأصح القول إنّه خلال وقت حياته وجد خوان إلْنيغْرو توازناً بين عالميْن، وكان في تلك المناسبة يطأ العالم الآخر، عالم الجهة الأخرى، بالكامل تقريباً، ببطنيْ قدميْن مشقوقتيْن.

كان وحده يشكل لجنة الاستقبال بكاملها، ويريد أن يعرف المزيد عن ضيوفه (هكذا أشار إلى الكاجابُّوكوجي: «ضيوفي»)، كما أبدى اهتماماً بعاداتهم، وهو ما كان بوو افينْتورا فقط قادراً على توضيحه. وسط خطوط الدخان الملتوية المتصاعدة من أواني الشاي التي قدّمها لنا إلْنيغْرو، بدأت ترتسم معالم تاريخ الكاجابُّوكوجي: في سنة ١٨٨٠، بعد أن تلوَّث مجال شعوب الكوجي بالأوبئة التي جلبها مُستخلصو المطّاط، وقضت الأمراض على آثار الكاجابُّوكوجي الأصليين وشعوب أخرى بكاملها، مِثْل الإيتكونسوميكوجي، الباكونكوجي، السكوتينكوجي، الإيكوكوجي، الإنسيبكوجي،

والكوسواكيتكوجي، قال بووافينْتورا: قام السُّكان الأصليون الذين كنا نعرفهم وقتئذ بوصفهم آخر من تبقى من سلالتهم بالهروب إلى المناطق الداخلية من الأدغال باتجاه الحدود مع فنزويلا، حيث تعرضوا لهجات الأعداء.

إنَّ الرجال، والنساء والأطفال الذين نجوا من هذه المجزرة، في منتصف الطريق بين الموت جوعاً أو نتيجة الجروح، عثرَ عليهم أفراد قبيلة أخرى، كانت مجهولة إلى غاية ذلك اليوم وأنقذوهم. لم يكن أفراد هذه القبيلة الثانية كثراً، بالكاد عائلة واحدة. كانوا أكثر تطوراً، من دون شك. وجدتُ آثاراً لهم، إذ كانوا يصنعون أشياء وملابس أكثر تعقيداً من أشياء وملابس شعب الكوجي. وتابعت المجموعتان رحلتهُما معاً، وعثروا في طريقهم على آثار حضارات قديمة كأنها نزلت مع المطر المستمر الذي يكشف كنوزاً ثم سرعان ما يخفيها، قال بووافينْتورا وهو ينظر إلى إلْنيغْرو، في أماكن كانت الأدغال تتشابك فيها كأنها تتغذّى على قوة حشرة مجهولة. لم يكن عددهم يتجاوز ثلاثمائة فرد، في أراضٍ لم تطأها قدم الإنسان الأبيض قطّ.

بعد أن ساروا تائهين لشهور عديدة، استقرّوا في النهاية جنوب نهر بوروس، في المنطقة نفسها التي سوف يجدهم فيها بووافينْتورا بعد مائة عام، يوم سيصاب بسهم في وجهه وسيتعلّمُ حينها شيئاً عن قدرة البشر على التأقلم والبقاء، لكن لا شيء عن حدود الجُبن ونطاق الشجاعة.

في أسطورتهم، كان الكاجابُّوكوجي الأوائل، الذين كانوا شعباً صار منسياً اليوم، ينظرون إلى أنفسهم بوصفهم سنّورياً متوحشاً ضخماً ووحيداً. عندما فقدوا أعضاء من مجموعتهم بسبب الأمراض والحروب، أصبحوا سنّورياً بقوائم وبراثن مبتورة من دون أذنين، به جروح خطيرة جداً لا ينفع معها أي دواء ولا يشفيها أي مرهم. وجاء الخلاص على يد الهنود الآخرين الذين وجدوهم، قال بووافينْتورا، شعبٌ يرى نفسه عظاءة كبيرة بذيل طويل. وكان هؤلاء الهنود الآخرون يملكون معرفة كبيرة.

في البداية لم ينجح اتحادُ الشعبيْن، وأصبح كل واحد منهما، من شعب السنّوري وشعب العظاءة الكبيرة ذات الذيل المقطوع، يستغرب الآخر كما تستغرب بنتُ عملاقٍ صِغْرَ بيتٍ من بيوت الأقزام اضطرت لتعيش فيه. وسرعان ما تجدّدَ ذيلُ العظاءةِ، ما أن عثرَ المتحدون الجدد على منبع نهر بوروس، أرض مواتية لبناء المالوكا، تلك الأكواخ الجماعية التي يمكن أن يبلغ علو عمودها الرئيسي عشرين متراً، بحجم عمارات حقيقية.

صارت الصراعات بين الشعبيْن شيئاً معتاداً، وغالباً ما تنتج عن الاختلافات في العادات والمعتقدات، لكن السّنّوري لم يتأخر كثيراً في الانتباه إلى قُوّة تجدّد ذيْل العظاءة، الذي يتجدد ويكبر. التحمت أعضاء السنّوْر بأطراف العظاءة، إن صحَّ التعبير، وشفي القطُّ الكبير. انتهت الخلافات أو أصبحت شكلاً

صامتاً لتحاشي الدخول في مواضيع تتجاوز إدراك السنّور، قال بووافينْتورا، مشاكل سنورية لم تحظ باهتمام العظاءة بأي شكل من الأشكال.

كان إلْنيغْرو يتابع باستمتاع رواية ضيفه، مغمض العينيْن عندما يبتلع الغليون ويطلق دوائر دخان تمتصُّها أشعة الشمس خارج النافذة الواسعة والمنخفضة جداً حتى إنها تلامس الأرضية، ومنها يمكن رؤية ذلك الطفل الجائع التي كان يتعقّبُنا. كان هناك جالساً تحت صبّار الحديقة، يزدرد شطائر جبن كانت النساء المحمرَّات بلهيب الفرن الخشبي يمدُدنها إليه من حين إلى آخر في صحون بلاستيكية حمراء، خضراء، وصفراء.

أفضت نهايةُ الصراع إلى ميزة سلوك غريبة! انحراف غير عادي في مزاج السكان الأصليين، قال بووافينْتورا، ناتج عن قرار الامتناع عن القتال فيما بينهم، والحفاظ على تعايش سلمي. هذا القرار، الذي يستبعد حلَّ الخلافات عن طريق الحوار، ربما كان يعود إلى اختلافات لغوية تشكل مصدراً آخر للمشاكل. كيلا يتعاركوا مع الآخرين، كانوا يصمتون، وحين يصمتون تنتابهم نوبة خطيرة من الكآبة تجبرهم على الابتعاد عن الآخرين، والانعزال في الغابة. ذلك الشعبُ الذي تكوّن مؤخراً أصبح ينظر إلى نفسه بصفته سنورياً كبيراً متوحشاً يتمتع بمكر الحرباء. وكان قسط من معاناته ينتج عن اقتسام جسد واحد. في مثل هذه الظروف، كانت البنية الاجتماعية تجبرهم

على إقصاء المستويات التراتبية، ونفي وجود الزعماء. كما أنهم لم يكونوا يتوفرون على ساحر يقوم بدور الوساطة في خلافاتهم الشخصية. إن الكاجابُّوكوجي الحاليين شعب فوضوي، لا يقبلون أي نوع من أنواع الزعامة.

رؤيةُ المائدة التي قدمتها النساء المازاتيكو جعلت ملامحَ وجه بووافينْتورا المثقبة ترتجف قليلاً في فرح على شكل تمدّد في ندوبه. بعد أن تناولنا الطعام في صمت، أراد إلْنيغْرو أن يعرف المزيد عن روحانيات ضيوفه. كان قد سمع عن التِّنْسانْهان، عن تناوله المُقدّس، ويعرف أنهم كانوا يحضِّرون الأدوية. كان المازاتيكو أنفسهم معروفين باستعمال التّيوناناكاتل، وبدوري، في فترة لم أكن أصدق فيها أي شيء، ترددتُ على طقوس تحت قيادة ماريا سابينا كي أتناول الفطر المُهلوس. حين سمعه، توقف بووافينْتورا عن المضْغ وأعاد إلى الصحن اللقمة التي كان يأكلها، لأنه انتبه إلى أن مستضيفنا لم يدرك بعد حجم الكارثة المدمرة التي حلت بالكاجابُّوكوجي. بدت تعابير وجهه أكثر كآبة.

إنَّ النسق البيئي الذي كانوا يعيشون فيه قد دُمّرَ عن آخره، قال بووافينْتورا، ومعه الأعشابُ الطبّية المقدسة، بل وحتى السموم التي ينقعون فيها سهامهم ونبات التِّمْبو الذي يستعملونه لصيد الأسماك. جفت الأنهار ونفقت الأسماك. اختفى كل شيء، حتى الخنافس التي يستخلصون منها التِّنْسانهان. لم يبق من شيء غير الرمال والتعرية. وعلى إثر اختفاء التِّنْسانهان، اختفى

عالمُهم العلوي، ومعه آلهتهم، حفلاتهم، بل وحتى السماوات الثلاثة التي سيستريحون في حقولها ويصطادون في مرح الخنافس ويضاجعون نساءهم. حين قال ذلك، تدلى رأسُه، اهتزّ جذعُه قليلاً، ومن الزاوية المظلمة حيث كنتُ أرتشف في صمت كأساً من شراب البولْكي، رأيتُ عينيْ بووافينْتورا تغرورقان بالدموع. إن الضيوف الذين سوف تستقبلونهم، يا سيدي، قال مخاطباً إلْنيغْرو، هم مجرد أموات يمشون نحو العدم. وبهذا الخصوص نحن نشترك في شيء متشابه: أولسنا جميعاً نسير نحو الموت؟

بعد وقت قصير على لقاء هواوتلا، عشية سفر الكاجابُّوكوجي إلى واكساكا، ومَضَ أفاتارُ رئيسي بشعار فريق «الصليب الأزرق» على شاشة هاتفي الخلوي. في رسالة صوتية غير منتظرة -أو أفظع من ذلك، من نوع الرسائل التي لا ينتظر المرءُ أبداً أن يتلقاها- كان يخبرني بين فترات صمتٍ وتنحْنُح أنّ بووافينْتورا قد مات. فاجأهُ الموت في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة التي كانت تقلّه إلى مطار بْرازيليا، حيث كان سيأخُذ رحلةً جوية إلى مكسيكو رفقة المنفيّين. لم يكشف التشريح الطبي بعد عن سبب وفاته، أضاف رئيسي في رسالة نصية، لكن يبدو أنه تعرض إلى نوبة قلبية.

مع اختفاء ذلك الرجل -كان الأمر يتعلق باختفاء نهائي، لأنَّ بووافينْتورا كان يمثل سلسلة من المتخصصين في إقليم السّرتاوْ، وحارب الدولة البرازيلية دفاعاً عن بقاء السكان

الأصليين، ومعه اختفت شيئاً فشيئاً، أو تحطمت تلك السلسلة الطويلة التي انكسرت آخر حلقة فيها في أكثر اللحظات مأساوية مع حدوث ذلك الموت المبكر- وقعت مسؤوليّةُ، بل أُبوّة، أولئك الخمسين كاجابُّوكوجي على عاتقي، وأنا يتيم أتخبّطُ في حدادي الخاص. وعكس ما كان منتظراً، لأنهما كانا مُسنّيْن عندما توفّيا ولدينا خلافات لا حل لها، لم أتمكن من استيعاب فقدان والديّ. كان دمُ الأسرة يتلاشى وصار المنزلُ الكبير إرثاً في ملكي. لا بد أنَّ رائحة الأشياء كانت هي رائحة جسديْ والديّ المتعفّنيْن نفسها.

خلال الأيام التي تلتْ لقاءنا الوحيد والساعات التي سبقت استقبال تلك الرسالة الصوتية المشؤومة، تملّكني قلقٌ يشبه ذلك الذي ينتابنا ونحن ننتظرُ ضيوفاً لحضور وليمة: عدمُ التأكد من حضور أحد المدعوّين، إن كان الطعام سيكون كافياً، أو حتى إن كان سيأتي شخص نباتي مفاجئ بين الضيوف قد يُقوّض كل ما قمنا به من مجهودات حين يرفضُ ما يُقدّم له.

حتى أواجه هذا القلق، الناتج في البداية عن الاجتماعات الخاصة بتحضير مراسيم الاستقبال التي أصبحت ضرورية، بدأتُ أشارك من جديد في طقوس تناول التّيوناناكاتل التي ينظمها إلْنيغْرو، كي يفسح طرقاً أمام وصول ضيوفنا ويطرد «**اللاّءات**»، أي عفاريت الغابة الأمْهقين.

من مالوكا إلْنيغْرو الرطب في تلال هواوتلا كان يستحيل

رؤيةُ السماء. لم يمرّ وقت طويل منذ أن فقد زوجة حياة بكاملها، وكان غياب النساء أمراً صارخاً كما يبدو من قلة الأشياء والملابس، ومن الصمت السائد في بيته. من بين مشاغل الشامان، كان أكثر ما يقلقه يرجع إلى دواء الكاجابُّوكوجي المقدس، التِّنْسانهان، لأن بووافينْتورا قال إنّ الحشرة التي يُستخلص منها قد تستغرق وقتاً طويلاً قبل أن تضع بيضاً وتُطوّر يرقات، حتى في مناخ الجبال الخصب. قد يتطلب ذلك انتظاراً لم يكن متوفراً لدى ذلك الشعب المحكوم عليه بالعالم المادي من دون توجيه من إلههم، المنفي بسبب دمار البيئة، لكن في مستوى آخر، بعيد المنال اليوم بالنسبة للهنود.

في نظر راهب مثل إلْنيغْرو، كان الأمر يتعلق بكارثة ضمن أفق موشوم بالكوارث. هنا بالكاد ستصل هياكلهم الجوفاء من دون أرواح، قال. ربما يستطيع التّيوناناكاتل أن يخفف من آلامهم. هؤلاء الرجال فقدوا زوجات وأبناء. إنهم وحيدون في هذه الطريق. لم أكف قط عن الإيمان بالقدرات الإلهية، قال إلْنيغْرو، لذلك أعترفُ بحيرتي. كما يشغلني أيضاً أننا لا نعرف أيّ شيء تقريباً عن معتقداتهم. إن بووافينْتورا، رحمة الرّب عليه، لم يوضح لنا هذه الأمور.

في آخر حوار عن بُعْد أجريناه قبل أن يجدوه ميتاً داخل سيارة أجرة، كشف بووافينْتورا عن شيء مذهل: في شبابه، حين اقتربَ من الهنود المنعزلين بعد إصابته بالسهم، علم أنهم لم يكونوا يشيرون إلى أنفسهم بأي اسم. لم يكونوا يتكلمون

كثيراً في حقيقة الأمر. بعد عدة أسابيع من المحاولات الفاشلة في الحديث التي قام بها بووافينْتورا، في سعي لتكسير ارتيابهم، وانتهت بتهديدات جدّ مُقْنعة برميه بالسهم مرة أخرى، في عضو حيوي هذه المرة، كشفت الشابّةُ الهندية التي لعبت دور المُحاور أنهم قد اتخذوا كلمة غير متوقعة للإشارة إلى أنفسهم: كاجابُّوكوجي.

بالنسبة لبووافينْتورا، كانت دهشةً ما فوقها دهشة، لأنه يعرف أن الكاجابُّوكوجي الأوائل كانوا قد تعرضوا للإبادة في سنوات العشرينات من القرن العشرين، على إثر غزو أراضي الكوجي. هكذا، فإن هذيْن الشعبيْن الناجييْن، اللذيْن ترجع قوتهما إلى اتحاد السنور المتوحش مع قوة تجدد العظاءة، وامتزجا في سنوري زاحف كي يدفنا خلافاتهما، اختارا أن يُنادى عليهما باسم الشقيقين البائدين، وهما يتحولان إلى كاجابُّوكوجي.

حتى تلك اللحظة لم أكن أعرف قدرة تعاطُف بذلك الحجم، حتى بين المدافعين عن إقليم السّرتاوْ المتأصلين أو المبشرين من أصحاب الكفاءة مثل بيدور كاسالْداليغا. نعم، قال بووافينْتورا بندوبه القريبة جداً من كاميرا الحاسوب، تعرفتُ عليه في ساو فليكس دو أراغوايا في ثمانينيات القرن العشرين. لكني لم أعد أعير اهتماماً لما كان يقوله بووافينْتورا، لم أعد أفعل، فقد كنتُ أتأمل الثقوب ومطاطية الجلد المترهل فوق تجاعيد وجهه على شاشة الحاسوب. وبينما كان هو يصف العمل المتفاني للراهب الإسباني، كنتُ ألاحظ الحركات التي

تنجزها عضلات وجهه في مجهود لمنح شيء من الإنسانية لملامح مُدمَّرة، مستنتجاً أنَّ ذلك الجرح كان يُتوّجُه بأعلى درجات الوقار. وأخيراً، تمكنت من النظر إلى بووافينْتورا وجهاً لوجه. أنا نادم على القيام بذلك، لأنني حينئذ لم أكن أدرك ما أرى ولا ما أفعل.

بعد رحلة مباشرة من مانوس حجزتها منظمة «Survival International» غير الحكومية، نزل الكاجابُّوكوجي في مطار واكساكا، فتأثر لذلك المكسيكيون. كان مئات الأشخاص ينتظرونهم خلف حواجز أمنية وضعها رجال الشرطة. وقامت طائرات بدون طيار بتصوير نزول خمسين رجلاً عبر سلم طائرة ERJ-145 ونقلها عبر الإنترنت إلى العالم بكامله، فنافست بذلك الأخبار المتعلقة بإرسال مهمة فضائية صينية إلى المريخ.

كان الكاجابُّوكوجي يرتدون ملابس رسمية من التبن تتشكل من قطعة واحدة، يضعون قبعات وأقنعة لا تترك للعيان سوى الجزء السفلي من سيقانهم. لا يحملون أمتعة ولا حقائب، يطؤون الأدراج بإيقاع بطيء ومنسجم، كما لو أنهم يجربون بأقدام حافية المادة التي صنعت منها، حتى بلغوا السجاد الأحمر والعبثي الذي بُسط لاستقبالهم. كان ذلك يبدو مثل وصول كائنات من كوكب آخر إلى الأرض. بإمكاني أن أصف بسهولة الضفيرة وبعض تفاصيل اللباس الرسمي الذي كانوا يستعملونه، لأنني كنتُ أملك منها واحداً داخل إطار معلق

بالجدار في صالة المنزل. كان عليه أن يذهب إلى المتحف الأنثروبولوجي في كسالابا، كما ذهب إلى هذه الوجهة تسعة وأربعون لباساً آخر مشابهاً. لكن، قبيل أن يتلاشى المشهد الذي عاينتُه في هواوتلا في سلسة من أبحاث الخبرة، سرقتُه. كانت سرقةً من دون تفكير، بغض النظر عن الحالة الهشّة التي كنتُ عليها وقتئذ، بعد أن خرجتُ من كوابيس ناتجة عن التناول الشعائري للتِّنْسانهان، وأنا لستُ نادماً على تلك السرقة.

في مهبط الطائرات، خضع الوافدون الجدد لفحص بآلة الكشف عن المعادن التي وُضعت هناك استثنائياً لاستقبالهم، في احترام تام لعاداتهم التي تنص على ألا يخلعوا ملابسهم الرسمية إلا وسط الغابة. طلبت سلطات الهجرة من الكاجابُّوكوجي أن ينتظموا في طابور ويمروا تحت آلة الأشعة السينية. من المضمار المجاور، مستنداً بمرفقي على غطاء محرك حافلة النقل المدرسي القديمة التي تنتظرهم لتحملهم إلى المحمية، كنتُ أرتاب من أن يُدهش الشرطي أمام شاشة الكاشف من تلك الجثث الفارغة من أرواحها، كما وصفها لي بووافينْتورا؛ أو سيتعجب مثل زميلته، تلك الشرطية التي كانت في هذه الجهة تفتش كل ضيف بكاشف محمول تستعمله بحركات تشبه حركات طقس ديني مازاتيكو يخلصهم من الأرواح الشريرة، بنظرات منتبهة جداً إلى الملابس الرسمية التي تجعل الكاجابُّوكوجي يشبهون حشرات الزّيز. كانت تفاصيل الضفائر التّبْنيّة تُصوّرُ أشكالاً مجردة بالأحمر

والأسود، والأقنعة تُزيل عنهم أي مظهر بشري. كانوا يبدون مثل حشرات ضخمة لم تكن مشيتُها المُتعثّرة نحو الحافلة تعكس قُوّةَ المحاربين الذين كانوا ذات يوم، فقط تَعَبَ ساعات من السفر. عندما مروا بالقرب مني، لم يسعني إلا أن أفكر أنه تحت تلك الجثث لم يكن هناك سوى أرامل ويتامى، رجال اختفى أبناؤهم وبناتهم، أشخاص وحيدون مثلي أنا ومثل إلْنيغْرو، طُردوا من عالم كانت أرضيته تنفتح تحت أقدامنا، وسيختفي بعد بضعة أيام فقط.

بعد ساعتين، عندما توقفت الحافلة في الطريق الضيقة المتربة على هامش غابة هواوتلا، فوق قمة تلّ يتعذر الوصول إليها تقريباً، كنتُ في انتظار الكاجابُّوكوجي رفقة إلْنيغْرو. تحت ضباب كثيف، خرج الرجال من الحافلة فيما قد يكون أكثر أنواع الصمت انسجاماً، إلا مما كان يتخلله من همسات قادمة من الأدغال وحفيف الملابس الرسمية. اختفوا وسط النباتات كما لو أنهم غطسوا في مياه نهر عادوا ليزوروه بشكل غير متوقع. مرّ وقتٌ طويل قبل أن تتوقف الأغصان عن التمايل، وتستعيد الحشرات والوطاويط هدوءها. لكنَّ الغابة سرعان ما استعادت شكلها الحزين مثل سور يحاذي الطريق.

انتظرنا أنا ورفيقي الصموت مستندَيْن إلى سيارة جيب، فبلّل هيكل السيارة المكسو بالطّل فتحات سروالي. بعد ذلك، خلع القمرُ عنه غيمةً ضخمة لها شكل حيوان مجهول، أصبحت بعد ذلك تشبه غوريلا، وأضاءَ المشْهدَ. قليل من

الناس كانوا يعرفون تلك الطريق، الضيقة جداً، إلى درجة أنها بالكاد تتسع لحجم الحافلة التي جلبت الكاجابُّوكوجي. وكانت في المنطقة وحوش مفترسة كبيرة. مستحضراً ذلك، ومنتبهاً إلى الفهد الذي عبر لحظة تفكيرهُ، سحَبَني إلْنيغْرو من ذراعي وولجْنا السيارة. كان مكيف السيارة مشتغلاً فجعلني الدفء أنام بعد وقت قصير. حلمتُ أنني كنتُ هناك تحديداً، داخل سيارة جيب، لكني مستيقظ، عندما برز ظِلٌّ من الأدغال ودنا من النافذة التي كنتُ أسند رأسي على زجاجها البارد. من الجهة الخارجية، وجه رائع لشابة كاجابُّوكوجية همسَ شيئاً ما في لغتها، فضبّبَ نَفَسُها الزجاج. اختلط وجهُها الشّمسي بالبدر الكامل، واختفى، لكنَّ كلماتها بقيت في هواء الليل. فهمتُ ما جاء في كلماتها: **الشّرُّ العظيم**، الإنسان الأبيض هو **الشَّرُّ العظيم**.

أيقظتني يدا إلْنيغْرو اللتان حسبتُهما عنكبيْن سوداوين وأنا شبهُ نائم، وهو يرُجّني من كتفي. بدأ يظهر ضوء النهار. أشار إلى أصوات متكررة قادمة من الأدغال. لقد وجدوا الأدوات، قال إلْنيغْرو، سوف نتعقّبُ ضربات الفؤوس حتى نصل إلى المكان الذي يوجدون فيه. مُحترسين، كان المازاتيكو قد نثروا في تلك المنطقة عدة أدوات مثل الفؤوس، والرفوش، والحبال، والمناشير والمناجل كي يستعملها ضيوفهم. بعد أن توغلنا في الغابة لمسافة ثلاثة كيلومترات، حددنا مكان الكاجابُّوكوجي في فسحة طبيعية. كانوا يشتغلون بجدّ، وقد

تقدمت أطوار بناء المالوكا، المالوكا الكبير، وبدأت تبرزُ بنيةٌ عالية من الجذوع. بعد أن خلعوا ملابسهم الرسمية، كان من الممكن الآن رؤيةُ عريهم الخام. كانوا يحلقون رؤوسهم على الجوانب، على طريقة الهنود الموهيكيين. لم يكونوا قصيري القامة ولهم جذوع قوية، نتيجة لحياة القنص والزراعة. كانوا رجالاً مسنين، باستثناء واحد منهم لابد أنه كان في حدود الخمسين من عمره ويتميز بأنه يفوقهم طولاً بعض الشيء، وهو ما يغطي عنه بحَدَبَته المناسبة. كانوا ينشرون الخشب، يكسرونه ويضعونه في كومة، في رقصة دقيقة وصامتة. ورغم الشيخوخة، لم تكن تصدر عنهم أنّات مجهود أو تعب، مهما كان حجم القطع التي يحملونها. كانت جلود الكاجابُّوكوجي تلمع تحت الشمس التي برزت فوق قمم الأشجار، بينما إلْنيغْرو، بعد أن بلغ سيارة جيب وعاد دون أن أنتبه إليه، راح يهيئ كوخاً نقضي فيه الليلة. لم أكن قد فكرتُ في الأمر، ولكن إنجاز تلك البناية يمكن أن يستغرق أياماً طويلة. عندما حلَّ الليل، كانوا ما يزالون مشتغلين. كان طلوع القمر كافياً كي يختفوا وسط أوراق الشجر: أُضيفَ صمتُهم إلى صمت الغابة، التي لم أنم فيها منذ طفولتي، عندما كان والدايَ يخيّمان في جبال فيراكروز، في نوبة فِكْر هِبّيّ استمرت لأقل من ستة أشهر، لحسن الحظ. في الطفولة، يمكن أن يكون حضور الوالدين خانقاً مثل الطبيعة الوحشية. خلال تلك الرحلات، كان التعذيب النفسي الذي يُخضعني إليه والدي يعادل التوغّل في الأدغال، حيث نتعرض للالتهام لحظة دخولنا إليها. قُرْب

النار، مدَّ لي إلْنيغْرو علبة مرهم لزج كريه الرائحة طليتُ به جلد ذراعيّ، وعنقي، وكاحليّ، وهي الأهداف المفضلة لحشرات البعوض التي ترغب في امتصاص دمي. ليلتَها لم أحلم، لأنه كان من المستحيل أن أغمض عينيّ.

أصوات ضربات خفيفة على سجاد من الأوراق المتساقطة تحت الأشجار جعلتْني أتخلى نهائياً عن محاولة النوم. في الفسحة، كان جزء من الكاجابُّوكوجي يَجْدلون غصوناً أكثر دقة على هيئة حمّالات مقوسة راحت تكتسي مع تطور البناية شكل قوس قوطي، بينما آخرون يجلبون أوراق نخيل ويضعونها لتجفّ تحت الشمس. جلستُ فوق صخرة نصف بعيدة وظللتُ أرقبهم، لكن العكس لم يحدث؛ بالنسبة إليهم أنا لم أكن حاضراً، أو أصبحت غير مرئي. وبينما هم يتحركون بخفة كبيرة بالنسبة لسنّهم، كان الرجال ينظرون إلى بعضهم بعضاً، وكانت حركاتهم متزامنة يبدو أنّها تتحكم فيها عملية تكرار لآلاف، ملايين حركات الأسلاف المطبقة في بناء **المالوكات** عبر الزمن.

حسب شروحات بووافينْتورا، كان الكاجابُّوكوجي يسكنون بيوتاً جماعية يمارسون فيها كل أنشطتهم الضرورية، باستثناء القنص والصيد، بالإضافة إلى زراعة الحقول، أو إنتاج السموم مثل **التِّمْبو**، والعلاج والشعائر المقدسة لتناول التِّنْسانهان، التي تجري في جزيرة يلفُّها الضبابُ. كما كان يُحظَرُ عليهم الموت بعيداً عن بيوتهم؛ إذ لا يمكنهم أن يصعدوا إلى **السماء الأولى**

إلا إذا وافتهم المنية تحت سقف **المالوكا**. إذا حدث ذلك في مكان آخر، فلأنهم لم يعودوا يرغبون في الحياة. حركات متكررة وتعب، ربما، هو ما شحذ سمعي، وحينها التقطتُ ذلك الصوت الذي يصدر عنهم، صوتٌ شبيه باهتزاز مصابيح فلّورية ذات تردد منخفض جداً، فأدركتُ أنهم يتواصلون. أصغيتُ إلى الطنين بانتباه أكبر فلاحظتُ أنّهم يكررون الجُمل أو الكلمات نفسها في انسجام، متّبعين بِنْية لحْنيّة، كأنهم يغنون. كان الكاجابُّوكوجي يغنون، لكن بصوت يكاد لا يُسمع. ألقيتُ نظرة على الجهة الأخرى من فسحة الغابة، بحثاً عن مكان إلْنيغْرو، وحين التقت عيوننا رأيتُ أنه كان يبتسمُ لي.

المعلومات التي تمكنتُ من الحصول عليها من قراءة المقال الوحيد الذي كتبه بووافينْتورا عن اللغة التي يتكلمها الكاجابُّوكوجي كانت تقول إنَّ الأمر يتعلق بلغة إدْغامية، مثل اللغة الألمانية أو، بشكل أدق، اللغة اليابانية. في الحقيقة، كان إيقاع تلفّظ تلك الأغنية اللا شعورية يحيل إلى لغة ما من لغات الشرق الأقصى، لكن كان ثمة شيء ليس في محله، كما يحدث حين نسمع كلمات من لغات شرقية أو لغات السكان الأصليين في ترجمة صوتية إلى اللغات الغربية. ومما كان يزيد من أثر هذا الاستغراب النطق بواسطة الأنف والشفتين، مما يمنحهُ شيئاً من الصفير أو الهمس الأغَنّ، حيث كانت الصوامت، ذات النبرات المختلفة والمضطربة، تلعب دوراً أساسياً. حتى من دون أن تُفهم، ومن خلال مقاطع تمكنتُ من التقاطها بصعوبة قصوى

وعدة شكوك على امتداد عشرة أيام كانوا منشغلين خلالها ببناء المالوكا، حدستُ أنهم مزجوا لُغتيْ الشعبيْن اللذين نتج عنهما الكاجابُّوكوجي الحاليون إلى درجة أنهم كانوا على وشك أن يخلقوا لغة سياميّة جديدة، تتجاذب فيها الوحدات المقطعية وتلتصق ببعضها بعضاً في ترتيب معكوس ومتعدد مثل جسد يتقاسم أعضاءَ حيويّة. ولفهمها في كُل جِدّتها الفوضوية، لابد من ابتكار نظام جديد تماماً من الدراسات اللسانية، رغم وجود خطر كبير في الفشل في تحقيق ذلك. قد يكون الكاجابُّوكوجي منذورين للعزلة الكاملة، لولا إصرار **الشّر العظيم** على غزوهم، واستعمارهم، وأمام استحالة تحقيق ذلك، إبادتهم.

خلال تلك الأيام في هواوتلا، بعد أن وقع حدث تلك الخاتمة المجنونة في الأمريكيتيْن، خاتمة غير محتملة بقدر ما هي غير متوقعة، أدركتُ أن نقطة نهاية هذه الحكاية لا يمكن أن يحددها سوى الكاجابُّوكوجي، أولئك الهنود المتمردون المناهضون لأي شكل من أشكال الزعامة، والفوضويون إلى درجة أنهم يعرفون أنه لا يوجد أي عرق متميز، وأنه لا يوجد أي إنسان ملك على أي شيء.

دخلتُ أول مرة إلى المالوكا التي اكتمل بناؤها للتّو في ليلة اليوم العاشر، مغتنماً لحظة كان إلْنيغْرو يؤكد فيها على تقديم الشاي إشارةً إلى الترحيب بالضيوف، لكن دون نجاح على ما يبدو. في البداية، شممتُ رائحة أوراق النخل اليابسة التي كانت تغطي قُطْر دائرة يبلغ مائتي متر، ثم دهشتُ أمام مدخل

البناية. كانت بناية ضخمة، أكبر بكثير مما قد يمكن تصوره من خارجها. كان الطلاء يمنع أي صوت حادّ من الوصول إلى هناك، وتدنيس ذلك الفراغ. مشيتُ باتجاه العمود المحوري، وباطنا قدميّ حافيان أحسّ بالأرضية المتربة، فصعدتْ طاقةُ الأرض عبر عمودي الفقري إلى دماغي. تحت العمود، لاحظتُ امتداده نحو الأعلى الذي يشدّ الأنفاس تقريباً، فشعرتُ بالدُّوار. في أقصى الطرف الأعلى من القبة النباتية كانت هناك كوّة دائرية رأيتُ من خلالها نجوماً تدور كأنّ عدسات منظار قوي قد صخّمتها. كانت السماء المرصعة بالنجوم تدور، كما يدور رأسي. كانت تلك المرْكبة تشيرُ إلى الأعلى، إلى مكان أصلها. كانت مستعدة للرحيل.

كانت السماء ما تزال هناك، لا أدري أيَّ سماء من السماوات الثلاث. ريحٌ هوجاءُ كنست النجوم. جلبة الطيور، التي تصمُّ الآذان، صوتُ الريح على الأرضية السوداء. الليل. قممُ الأشجار ترقص، صريرُ الجذوع والأغصان على وشكِ أن تنشق، تدفعُها الريح الهوجاء. عاصفةٌ من الأغصان في الهواء. الظَّهرُ متوحل بالطين، الجسدُ عار تغطيه أوراق يابسة. عرقٌ بارد، أسنان تصطكُّ، والتهابٌ في المعدة. قلقٌ. نوبةُ قيء أولى. مطرٌ قوي على الوجه. استيقظتُ. وحيداً، مستلقياً وسط الغابة. نوبةُ قيء ثانية. الظلام لا يسمح لي بتمييز شيء كثير. ثالثةٌ. شراراتُ نار محتضرة تتراقص أمام عينيّ، وتذهب لتتلاشى بعيداً. الرابعة. الخامسة. تأخرتُ في التذكّر، وحينئذ

تذكرتُ. جالساً، أسندُ يديّ إلى الوحل، أنحني بجدعي على ساقيّ، كانت العاصفة تغسلُني. تقيأتُ مرة أخرى. أحرقت الصاعقةُ شجرة، فأضاءت الأعشاب من حولها. وحينئذ رأيتُ شبحيْهما، فقط هكذا، بفضل النار، استطعتُ أن أراهما، ولم أكن قد رأيتهما منذ وقت طويل. مددتُ يديّ باتجاههما. أبي. أمي. أصيبا بالذعر. استجمعتُ قواي لأنهض. من الشجرة سقط غصنٌ مشتعل، وكاد يصيبني. حتى أستعيد التوازن، وضعتُ يدي على الجذع المحترق. رائحة لحم محترق صعدت إلى خياشيمي. رائحة جسدي. دسستُ يدي في الوحل البارد فرأيت كفّي المشتعلة تبرد وتنطفئ في أوراق الشجر التي تغطي الأرضية. أبي. أمي. لم يُلوّحا لي بأدنى إشارة. هربا. اختفيا في الأدغال، وأخذا معهما خلافاتنا. شعرتُ بالحِداد يخف عن كتفيّ. استأنفتُ المشي وشيئاً فشيئاً تذكرتُ.

تِنْسانهان، قال إلْنيغْرو وهو يلجُ إلى المالوكا قبل ساعات، إنهم قد دعونا إلى الطقس الذي سيتناولون خلاله آخر احتياط يملكونه من التِّنْسانهان. شرفٌ عظيم. يرغبون في شكرنا على حسن الضيافة. إنهم في انتظارنا، قال. هيا بنا. في أرض غير بعيدة عن هناك، كان الكاجابُّوكوجي الخمسون ينتظمون في دائرة حول موقد نار. يرتدون ملابسهم الرسمية، لكنهم لا يضعون الأقنعة المعلقة نحو الخلف على شكل قلانس. كان هناك مكانان مخصصان لنا. حين انضممنا إليهم، نهض اثنان منهم، واحدٌ من كل طرف من الدائرة، ثم توجها نحو وسط

الدائرة، ينفخان نشوقاً أمام خياشيم كل رجل من الرجال، الذين كانوا يسقطون نحو الخلف بمجرد استنشاقه. وصل رجلا الكاجابُّوكوجي أمامنا أنا إلْنيغْرو. قبالتي، مقرفصاً، تعرفتُ الرجل الذي كانت حَدَبَتُه تجعله شبيهاً بساعي بريد، لكنه ساعي بريد في بداية جولته يحمل كيس المراسلات ليوزعها. كان الوعاء المصنوع من الخشب المنحوت الذي يستعملانه له شكل عظاءة. كلاهما ينفخان من فم العظاءة فيخرج التِّنْسانهان من ذيلها، ليخترق خياشيم أنفي.

في الغابة، بعد عدة ساعات، وأنا أستفيق من حالة الغيبوبة، استطعتُ أخيراً أن أحدد مكاني. مشيتُ باتجاه المالوكا. عند منتصف الطريق، رأيتُ امرأة من المازاتيكو مقرفصة إلى جانب رجل مُمدّد على الأرض. عندما اقتربتُ منها، نهضت المرأة وغادرت، مختفيةً وسط الأشجار. كانت هي زوجة إلْنيغْرو، الذي كان ميتاً، بوجه شاحب يغطيه الوحل والأوراق المتساقطة. حاولتُ أن أغمض جفنيْه حتى تكف عيناه عن تلقي وخزات إبر المطر. لكنه ابتسمَ لي. ساعدتُه على النهوض فذهب إلْنيغْرو ليلتحق بزوجته. تابعتُ طريقي. أفصحت الفسحةُ عن شساعتها، ورانَ صمتٌ كبير في جميع الأنحاء. توقفتُ عند عتبة المالوكا، الذي كان ينفلتُ من داخله وميضٌ أحمر ينبعث من موقديْ نار على وشك أن ينطفئا. تحت قدميَّ شعرتُ بشيء لزِج. مرّرتُ السبابة على النعل لأتأكد. كان دماً. كانت الأرضية المُتربة داخل المالوكا غارقة في الدم الممزوج

بالوحل. سحبتُ جذعاً مشتعلاً من موقد النار واكتشفت مصدر الدم: مُنتظمين في دائرة، كما في طقس التِّنْسانهان، كأنهم أرقام ساعة توقفت عقاربُها عن الاشتغال، كان كل رجل من رجال الكاجابُّوكوجي يحمل جرحاً عميقاً في الأَرْبيّة عند مستوى الشريان الفخذي، وإلى جانبه سكين ساقط على الأرض، تغطيه الدماء.

مكتبة
t.me/soramnqraa

محوُ الاسم العائلي
أعالي نهر بوروس، ١٩٨٠

عندما غادرتُ ذلك المشهد من الإبادة، وبعد أن استمعَ إليَّ رجال الشرطة وحرّرُوني، عدتُ إلى عنوان الإقامة القديمة لوالديّ وسط واكساكا. شعرتُ كأنني أدخل لأول مرة إلى ذلك المنزل الكبير شبه الخرب الذي صار ملكي الآن. كان يسود هواء راكد في الغرف التي تفوح برائحة العفن. لا بد أنني نمتُ لأكثر من أربعٍ وعشرين ساعة. بعد ذلك، استجمعتُ همّتي ثم أخذت أكياساً من النفايات وبدأت أفرغ الدواليب، والصناديق، والرفوف وخزانات الصحون من محتواها: ملابس، سراويل، قمصان، خُردوات وكتب. رميتُ الأكياس المملوءة في حاوية النفايات عند الرصيف حتى يجمعها أشخاص أكثر حاجة مني إليها، وضعتُ قبضتيْ يديّ على خصري ورفعتُ رأسي، مزهواً. من الجهة الأخرى من الشارع، رمتني أحسن صديقة لأمي، ترملت مؤخراً، بنظرة تأنيب من عينيها.

عدتُ لأنام. حين استيقظتُ، لم أكن أعرف أين أنا، ولا ما

يمكن أن أصنع بأيام الإجازة التي تنتظرني! كنتُ أشعر أنني فارغ مثل رفوف الصالة. ربما لم يكن عليَّ أن أكون جذرياً في تخلّصي من الأشياء. في معظم فترات حياته، كان والدي أستاذاً مرموقاً في كلية الآداب والفلسفة، رجلاً محترماً في مجتمع واكساكا، لذا كانت هناك كتب قيمة في مكتبته، ربما قد تنفعني في يوم من الأيام. شعرتُ بالندم، فتأكدت عبر ستار النافذة إن كانت الأكياس ماتزال في حاوية النفايات. كانت الحاوية فارغة، بالطبع. بالصدفة، رأيتُ مُتسوّلاً جالساً على حافة الرصيف. كان يقرأ بتركيز الطبعة الأولى من رواية **بيدرو بارامو** تحمل إهداء من رولفو كانت في ملك والدي، والتي كان بإمكاني أن أكون بصدد إعادة قراءتها الآن. جالساً هناك في الشارع يشبك ساقيه، كان المتسول يكتسي هيئة ملغزة لراهب صيني أو ياباني، لراهب من ديانة الزّن.

وأنا ما أزال في قسم الشرطة، قبل أن أدلي بشهادتي، أعفاني رئيسي من العمل لمدة أسبوع. حتى أستريح من كل هذا الجنون، قال لي. في البداية، بدا الأمر معقولاً، لكني سرعان ما انتبهتُ لماذا لم أكن أقوم بذلك منذ مدة طويلة، ولم أكن أطلب إجازة ولا عطلة، لأنني عادة ما كنت أقايضها مع الزملاء أو أبيعها للمسؤول عن الموارد البشرية، لأشتغل مكان المتغيبين في المصلحة، وهو ما جعل الآخرين ينعتونني بلقب **الرجل الذي لا يستريح أبداً**، سخريةٌ تصطدم بسمعة موظّفٍ مُهمِل كانت تُلاحقُني. الآن أرى أنني لم أكن آخذ أيام

عطلة حتى لا أشعر أنني سجين في منزل والديّ. هكذا، كنتُ أتحاشى حضورهما وكلامهما المطروق. لكني هذه المرة، كنتُ هناك سجيناً بشكل لا يمكن استبعاده، أواجهُ واجب تقبُّل ذلك المنزل الكبير بيتاً لي. بسبب أثر حادث الكاجابُّوكوجي، خلصتُ إلى أنه من الأحسن أن أتحاشى حانات وسط المدينة والشروحات المتوقعة التي عليّ أن أقدمها لأشخاص غرباء. قررتُ أن أتعوّد على البقاء في البيت، جامداً مع أنّ رأسي يحترق.

كي أستحثَّ همّتي، ذهبتُ إلى سيارة الجيب لأخرج منها كيس الظهر. كان يبدو أكبر حجماً من المعتاد، فقط عندما فتحتُ السحّاب تذكرتُ السرقة العبثية التي اقترفتُها. بسبب ذهني المشوش بالتِّنْسانهان، وأنا ما أزال تحت صدمة المشهد المحبط من حولي، اختلستُ لباساً رسمياً لأحد الكاجابُّوكوجي. حدثَ ذلك قُبيْل وصول رجال الشرطة إلى هواوتلا، وإن كان من شيء أقوله دفاعاً عن نفسي، فهو أنَّ المنتحر كان عارياً عندما وجدتُه. كان الكاجابُّوكوجي كلهم عراة وأمواتاً. كان والدي يجمع قطعاً أثريّة للسكان الأصليين، يحتفظ بها في مكتبته. كانت المجموعة تمتد حتى إلى الصالة، حيث كانت عباءةٌ هندية محفوظةً داخل إطار كبير، تشبه رداء مطر يعود إلى فترة ما قبل وصول الإسبان مصنوعٍ من أوراق النخيل. عندما سحبتُه من الإطار، خرجت سحابَةٌ من العثّ من داخل بنية الخشب والزجاج. إنَّ أشياء السكان الأصليين

هذه تبدأ في التحلل منذ اللحظة التي تُسرق فيها من مآويهم العريقة، اعتادَ والدي أن يقول بنبرة الأستاذ المزعجة. رميتُ العباءة الهندية في حاوية القمامة، واحتفظتُ عوضها بلباس رسمي من ملابس الكاجابُّوكوجي.

وأنا أفرغ كيس الظهر، لاحظتُ أيضاً أنَّ بطارية هاتفي الخلوي كانت فارغة. مع انعدام الإشارة في هواوتلا، كنتُ قد نسيته تماماً واعتمدتُ جهازَ الراديو الذي يستعمله المازاتيكو. وضعتُ الهاتف في المقبس لأشحنه، وبعد وقت قصير، سمعتُ صفير عدة رسائل كانت تصلُ. من بينها، رسالة لبووافينْتورا، بعثها يوم مصرعه، في نفس اليوم الذي غرقتُ فيه في المتاعب العملية المتعلقة بوصول ضيوفنا. أرْبكني خبرُ فقدانه، فنظرتُ إلى الأخبار الأخرى القادمة من العالم الخارجي. كانت رسالة بووافينْتورا تتضمن فقط رابط إحالة دون أي تعليق يُذكر. نقرتُ على الرابط فأخذ المُحرّكُ يُنزلُ أرشيف فيديو ضخم، وهو ما نتجت عنه أخطاء ومحاولات جديدة بسبب ضعف الربط في المنزل (حلُّ ذلك قد يشغلني لما تبقى من الأسبوع، إن لم أستعد همّتي). حسب التوقيت الظاهر على الشاشة، لا بد أنها قد أُرسلت من المقعد الخلفي لسيارة الأجرة التي توفّيَ داخلها، وهو ما لم يقدم لي أي عزاء. فقط استطعتُ أن أُنزلَ الفيديو كاملاً في حاسوب غرفتي.

في التسجيل، كان بووافينْتورا جالساً في مكتبه أمام كاميرا الحاسوب. كان يرتدي القميص نفسهُ ذا اللون الأزرق الفاتح

المفتوح عند الصدر الذي يغطيه شعرٌ أبيض، وهذا ربما يشير إلى أنه سجَّل ذلك الفيديو بُعيْد آخرِ حوار لنا عن بُعد، عشيّةَ سفر الكاجابُّوكوجي. كان وجهُه منقبضاً وجفناه منتفخين، كما لو أنه أصيب بنوبة بكاء في فترة ما بين التسجيلين. كان الفيديو يبدأ بصمت عميق، يمكن من خلاله سماع لهاثه بسبب إدمانه على التدخين لعدة عقود. في الخلف، كانت تُسمع أصداء جلبة أطفال تصدر من مسبح أو ملعب رياضي في القرب، مما يضفي شيئاً من المرح على ذلك التسجيل. كنتُ أشعر بالقلق وأنا أتخيل محتوى ذلك التسجيل الطويل جداً (كان مؤشر الفيديو في الأسفل يقول إنّ مُدّته ساعتان وعشرون دقيقة)، وفوق ذلك، ما دفعه ليبلغهُ من خلال تسجيل بَعْدي وليس بطريقة مباشرة، كما كنا نفعل من قبل. هذا ما جعلني أتذكر أنه كان ميتاً.

مُتردّداً، كأنّه لم ينتبه إلى أنّ الكاميرا كانت مشغّلة، تحدّثَ بووافينْتورا فقط بعد دقيقتين وإحدى وثلاثين ثانية، كانَ ينظر منذ البداية إلى الجانبين، في اتجاه مصدر ضوء طبيعي قادم من نافذة محتملة توجد خارج إطار الصورة. كان يبدو أنه ينتظر وصولاً وشيكاً لأحد ما. صديقي العزيز، أستسمحُكَ على هذه الرسالة غير المنتظرة، قال في الأخير، وهو ينظُر إلى الكاميرا. الآن فقط، بعد أن تحدّثْنا قليلاً، أدركُ أنه ما زال لديَّ شيء مما أقول لك، في الحقيقة، كثير مما أقول لك، وبشكل مستعجل. لقد تلقيتُ تهديدات. حسناً، أنا مُهدّد منذ وقت طويل، لا

أعرف منذ متى. منذ وقت طويل. لكن هذه التهديدات مختلفة، وتضطرُّني أن أرسلَ إليك هذا لسببيْن اثنين. أولا، حتى تعرف، في حالة عدم حضوري أثناء وصولهم، كيف تتعامل معهم. لا أقول كيف تفهمهم، لأنَّ هذا أمر مستحيل، بل كيف تتعامل معهم، لأنَّ هذا هو ما بوسعنا القيام به، ولا شيء فوق هذا، لأنَّ الذهنية المتوحشة منيعة. ثانياً، لاحقاً، سأتقاسمُ معكَ بعض الشكوك والعديد من المخاوف. أستسمحُكَ لهذا الأمر أيضاً، لكن عليّ أن أعود إلى الماضي، إلى سنوات الثلاثين من عمري، وأتذكر أحداثاً أُفضّلُ أن أكون قد نسيتُها، أشياء كان ينبغي أن تبقى مدفونة في الأرض الرملية لضفاف روافد نهر بوروس. يبقى أن نعرف، كيف ننسى بعض الحقائق؟ أمرٌ مستحيل، إلا إذا كنَسَها حادثُ اختلالٍ في الأوعية الدماغية أو داء الزهايمر. وهذه ليست حالتي، على الأقل ليس بعد. في سنة ١٩٨٠، كنتُ شاباً، أكثر جهلاً مما أنا عليه الآن، وكنتُ قد وصلتُ، بعد رحلة مليئة بالمتاعب، إلى حوض نهر بوروس. حينها كنتُ مقتنعاً بأنني لن أعود إلى المدن، وأنني لن أعيش أبداً سجينا بين جدران منزل، أو مضغوطاً بين ألواح خرسانة بناية في ساوْ باوْلو، المدينة التي ولدتُ فيها. كان والدي قد اختفى أثناء حرب العصابات في أراغْوايا قبل ستّ سنوات، وأمي أنهكها البحث الطويل عن آثاره، تتابع جريدة بجريدة، وتنتقل بين المكاتب والثكنات ومخافر الشرطة في محاولة لربط الاتصال بشخص يشفق لحالنا. انتحرت أمي في شهر يناير من تلك السنة، في فجر اليوم الأول من سنة ١٩٨٠. وبذلك، أزالت نهائياً إمكانية

أن تعيش سنة أخرى من دون الحضور الحيوي لوالدي، من دون عنف التعايش مع مشاكله، وكان الحزن الفظيع الذي استحوذ عليّ قد مدّني في النهاية بالشجاعة، التي لم أكن قبل ذلك أستجمعها بالقدر الكافي، لأذهب نحو الشمال. في ماناوس، كان في انتظاري صديقان، عالم أنثروبولوجيا أمريكي وزوجته، مصورة بريطانية: جورج وسيلفيا ماريا فولير. كانا يناضلان من أجل بقاء قبائل اليانومامي، وكشفا لي عن الإشارات الأولى حول شعب مجهول يسكن الأدغال على بعد رحلة ثمانية أيام بالمركب في منطقة زاراها مؤخراً، انطلاقاً من شهادات بعض مستخلصي المطّاط الذين نجوا هنالك من هجمات هؤلاء السكان الأصليين. عندما حكى لي ذلك، كان جورج صارماً في تحذيره: لا تذهب إليهم لأنك لن تنجو، وحتى لو نجوتَ، قال، سوف تقتل بعضهم، وربما تقتلهم جميعاً. أمام إصراري على متابعة الرحلة، لم يتمكن جورج وسيلفيا، اعتماداً على ما كان متوفراً لدينا من معلومات في تلك الفترة، سوى أن يضعاني تحت الحجر الصحي حتى يبحثا المخاطر الوبائية التي كان يحملها جسدي، القذائف النائمة فيه التي قد تقضي على كل ساكنة ذلك الشعب المجهول. لكن، كما كنتُ أعرف، كان جسدي سليماً. وكان الفيروس الوحيد الذي تلقيتُه وقتئذ هو الحزن اللعين الذي كنتُ أحمله بعد فقدان والديّ. كان ذلك الحزن يدفعني كي أدمّر نهائياً الثقل الذي يرغب في إغراقي، كنتُ أودُّ أن أتابع سيري حُرّاً على طريقي الخاص، الذي تبيّن أنه نهر في نهاية المطاف. غادرتُ في اليوم التالي بعد أن تلقيتُ

الضوء الأخضر من صديقيَّ اللذين تابعا نضالهما إلى جانب قبائل اليانومامي، قضية بدأت يومها تتخذ أصداء دولية. لم تكن الرحلة سهلة، كما قلتُ. باستثناء الدليل الهندي الذي استعملتُه ابتداء من وصولي إلى مدينة لابْريا، على بعد ثمانمائةٍ وخمسين كيلومتراً من ماناوس، كنتُ وحيداً، وحتى الخرائط العسكرية لتلك المنطقة -متجاوزة، غير مناسبة، وغير موثوقة لعدم دقتها- قد تدُلّني على طريقي. مع توالي تلك الليالي من التأمل الحزين، المضاءة بفترات نهار لزجة من القيظ والمطر، انتبهتُ من جديد إلى الأشياء المألوفة: النهار، المساء، الليل، والأدوات الضرورية للحياة البشرية في ذلك الركن المنعزل، من سكاكين، وحبال، ولفافات سجائر أو نشوق للتخفيف من الضغط. أشياء يومية، مذكرة ملاحظات، كتابان أو ثلاثة. خلال تلك الأيام نسيتُ اللغز الذي يمثله والديّ، في تلك اللحظة التي ستظل من دون حلّ إلى الأبد، وكنتُ أقترب من جسدي كما في الطفولة والمراهقة، وتلك الأشياء الصغيرة جداً التي لا غنى عنها للبقاء على قيد الحياة في الأدغال، وكنتُ أنظر إلى إبهام قدمي من دون أن أتعرّفهُ، وامتداداً لذلك كنتُ أغرق داخلَ ذاتي كما لم يسبق أن غرقت فيها قط. في لابْريا، أرضٌ رطبة موحلة حيث هناك بالكاد شارع واحد صاخب فيه شاحنات وعربات وسيارات جيب يغطيها الوحل، تعرفتُ على أشخاص تابعين «للمجلس التبشيري للسكان الأصليين» الذين أطلعوني على ممارسات عدم التعايش مع الشعوب المعزولة، قال بووافينْتورا وهو يحكُّ ثلاثة أعواد ثقاب قبل أن يفلح في

إشعال سيجارته، وهو موضوع سأتعمّقُ فيه أكثر لاحقاً بمساعدة جورج وسيلفيا. كنتُ أعرف أنه في تلك الفترة لم تكن تلك الممارسات أكثر من تصورات نظرية أولية مشبعة بأمل ضعيف جداً، لأنَّ التوسع العسكري الداعم لاستغلال الموارد الطبيعية في الأمازون كان يتمددّ على حساب أراضي السكان الأصليين، وسياسة الحماية التي قد تسمحُ بتحديد المحميات كانت بعيدة كل البعد عن أن تصبح حقيقة. كانت أياماً من الانتظار والتأقلم مع ذلك الطرف الأقصى من العالم، وكنتُ أبقى في أرصفة الموانئ أتابع انطلاق ووصول المراكب التي تصعد وتنزل عبر النهر في رحلات تستمر لأيام. كنتُ أنتظر الدليل الذي أشار لي به أصدقائي في «المجلس التبشيري للسكان الأصليين»، وهو خلاسي من قبائل الطوقان سيقودني في أعلى النهر نحو الوجهة نفسها التي أُبعدَ إليها شعبُ الكوجي في القرن التاسع عشر. حكى أحد الباحثين عن الذهب أنه رأى في المنطقة هنديين مجهولين بتسريحة شعر على طريقة هنود الموهيكان، على بعد رحلة مركب من ثمانية أيام أو ما يناهز ذلك. كانا قويّيْ البنية، يحملان سهاماً، ورأيتُهما فوق صخرة على ضفة النهر، لكنهما اختفيا ما أن لمحا مركبي، قال لي في منضدة الحانة حيث عرفتُه. كان الوصف ينطبق مع ما قدّمهُ جورج، الذي ذكرَ بدوره تسريحة الشعر على طريقة الهنود الموهيكان. واستغرقَ الانتظار من الوقت أكثر مما كان مخططاً له. ربما يكون شيء ما قد وقع للبعثة التي يقودها الطوقاني، رغم أنه لم تصل أي معلومة عبر جهاز الراديو إلى وكالة الملاحة النهرية التابعة

لقيادة موانئ الأمازون الغربية. لم يكن المال هو مشكلتي يومئذ، لأنني قبل أن أغادر كنتُ قد بعتُ المنزل العائلي. بدأتُ أتردّد على حانة الباحثين عن الذهب ومستخلصي المطّاط، مكان تعمّه الفوضى يدعى «منعطف النهر الوسخ»، وهو بناية تستند على جذوع خشبية عائمة فوق نهر بوروس. من الطاولة كان يمكن متابعة المطر المستمر الذي يسقط في الشارع على امتداد النهر، يغطي بالطين كل شيء ويوحلُ أي عربة تتوفر على عجلات، وأيضاً الضفة الأخرى المظلمة من نهر بوروس. وبينما كانت المياه البُنّية تجري بطيئة عبر الضفة، كنتُ أسكبُ نبيذ «الكاتشاسا» وأتناول سمكاً مقلياً. مع التأرجح المستمر كان من الصعب التعرف على اللحظة التي تبدأ فيها الثمالة. لم يكن الضباب فوق النهر يتلاشى أبداً، مما يمنع رؤية ضوء الشمس إلا من خلال ما يشبه المصفاة، وهو أثر يحدث بسبب الطقس الضبابي. بطريقة ما، كان الوقت دائماً ليلاً في لابْريا؛ فتأثرت روحي بهذا الجو القاتم. أظنُّ الآن أنه ربما يكون هناك دافع ثالث لتسجيل هذا الفيديو: الحزن الذي واجهناه نحن الاثنان. لا يبدو لي أنّه من قبيل الصدفة أن أكون قد فقدتُ للتو والديّ عشية الاتصال بالكاجابُّوكوجي، وهو ما حدثَ لك أيضاً الآن، وهم على وشك أن يصلوا إلى واكساكا. الموتُ، لغزُ الموت، ولكن أيضاً لغزُ إرث متقطع من دون معنى. لم أكن أملُّ من النظر إلى النهر، متأملاً حركة مياهه الغزيرة. وكنتُ أستغرب من إبهام قدمي، الذي لم أكن أتعرفه من ذاتي، لأنه كان يبدو لي جسداً من أبي زُرع في جسدي. من حين إلى آخر، كنتُ

أسهو وأنا أدرسُ الأشخاص المحليّين، كلهم رجال أعماهم حب الثروة. كانت أحلامهم بالثراء قد فسدت حتى صارت كوابيس. كانت الشجارات بالسكاكين أمراً عادياً. في الحقيقة، كان يبدو أنَّ أولئك الأجلاف بالكاد يتفاهمون للحظات، قال بووافينْتورا، سرعان ما يختزلونها في خلافات أثناء لعب الورق أو بسبب الكحول. كان هناك شيء واحد يكرهونه أكثر من ذواتهم: هؤلاء السكان الأصليون الملاعين.

حتى تلك اللحظة، لم تكن تقطعُ رواية بووافينْتورا سوى وقفات لنفث الدخان، أو عندما يشعلُ سيجارة أخرى. انطلاقاً من نقطة معينة، ارتعشَ صوتُه، وكان أيّ ضجيج -عادم سيارة ينفجر هناك في الأسفل، أو صيحات الأطفال المتصاعدة- يبدو أنه يزيد من إزعاجه. استأذنني وذهب يبحث عن كأس ماء وسجائر أخرى. لما عاد، ظلَّ جامداً أمام الكاميرا بينما كان يزيل الغلاف البلاستيكي عن العلبة، كما لو أنه يُصيخُ السمع كي يلتقط أصواتاً كان يبدو لي أنه يستحيل سماعُها.

ما يبدو غير منسجم، لأنهم جميعاً كانوا خلاسيين أو هنوداً تأقلموا مع ثقافة البيض، قال بووافينْتورا حين عاد ليشغلَ كرسيّهُ أمام الحاسوب. لم يعد كرهُ الهنود حصراً على الإنسان الأبيض منذ سنة ١٦١٦، عندما أسَّس البرتغاليون مدينة بيليم وقرروا الاستيلاء على منطقة الأمازون. بعد سنوات قليلة، قامت بعثة تتكون من جنود برتغاليين وألفٍ من الهنود بالصعود إلى كيتو، مدمّرةً كل ما تجده أمامها. كان أولئك الهنود يقتلون

هنوداً آخرين من دون أي مشكلة، ويفعلون ذلك من أجل البقاء على قيد الحياة، وأكيد أنهم كانوا يقتلون بعضهم قبل أن ترسو سفن كابرال هنا. إنَّ القتل ليس حكراً على الأوروبيين، ولم يكن كذلك قط، كان قسوة فقط. بعد أن قال ذلك، هدأ بووافينْتورا. وبسبب مشكلة في البثّ، ظلَّ وجهُه الممزق جامداً على الشاشة لبضع ثوانٍ، موضحاً الجملة التي ظلت معلقة بكل الحدّة التي زيّنها به سهمُ الكاجابُّوكوجي. قتلٌ، قسوةٌ. بعد ما يناهز عشرين يوماً من التأخير، نزلت الشّمسُ بقوة على سقف مركب الدليل الطوقاني عند خط الأفق قبالة رصيف ميناء لابْريا. عندما وطأت قدماهُ ألواح الرصيف، وجدَني مستعداً للمغادرة، قال بووافينْتورا. في اليوم التالي، كان الهلع في عيون أصدقائي من «المجلس التبشيري للسكان الأصليين» وهم يودّعونني يذكرني بذلك الهلع الذي نخصُّ به المنتحرين. كانوا يظنون أنني لن أعود. انطلقنا عندما كانت المياه منخفضة، وكان الضباب اللّبَني المخيم على المركب يتناقضُ مع الظلام هناك بعيداً. بالكاد كنتُ أستطيع أن أميز ملامح الطوقاني المقرفص في المقدمة، وفي البداية كنتُ كأنني ما أزال عند طاولة الحانة العائمة، وهو ما كان له جانب مفيد لأنه كان بمثابة دواء ضد الدوار الذي سأواجهُه أثناء الرحلة. تقيأتُ فقط ما يكفي كي أخلص جسدي من سموم الكحول، ثم استغرقتُ في رتابة المناظر الطبيعية التي يضخمها هدير المحرك المتكرر. كانت شساعة المياه رائعة، وفي كثير من مقاطع النهر كانت الضفاف تتباعد إلى درجة أنها تصبح غير

مرئية. خلال اليومين الأولين، استطعنا أن نقضي الليلة داخل مستودعات وضعتها شركات استغلال الخشب في المنطقة؛ وبعد ذلك، بحثاً عن الأمان، نمنا في المركب تحت القماش المبسوط كي نحتمي من المطر الذي كان يسقط بشكل متقطع. لذلك، كان خيار الرسو في اليابسة مستبعداً، وشيئاً فشيئاً بدأ وعيي ينساب كما تنساب مياه النهر. بسبب الضوء الباهت للشمس المختبئة تحت أنهار عائمة من السُّحب التي ترافق مجرى نهر بوروس، بدأ الليل والنهار يختلطان، فلم أعد أتعرف حدودهما. كانت نقرات قطرات المطر المُلحّة على الجلد تثير الألم، وكنت أشعر أنني أوشك أن أتحول إلى نوع جديد من الحيوانات البرمائية، بدءاً بالتشققات التي غزت قدميَّ كأنها حزّاز ينبت بين الأصابع. هذه الآفة تتوغل فينا، كان الطوقاني يدمدم دون أن أفهم بالضبط ما يقصده، وهو غارق في ركن مقدمة المركب. تحت القماش العفن، كنتُ أستمع إلى هدير المحرك وأُقدّر الفضاء المترامي الأرطراف الذي كنتُ أنا ودليلي الهندي متورطيْن فيه، حشرتان داخل قشرة جوز تطفو فوق مياه النهر القاتمة التي تعكس النجوم. سكبَ الصباحُ اللّبني لليوم الثامن قيظَهُ الأبيض عبر القماش، واضطرّني أن أفتحَ عينيَّ. وبما أن زخّات المطر كانت تعدُنا بهدنة، جمعنا القماش وتأملنا السماء المنجلية. عندما عرَّضتُ رأسي لضوء الشمس، كدتُ أشعر بافتقاد غبار المدينة الكبيرة، الذي يدخل عبر النوافذ ويسقط على الأثاث والكتب، يغطي كل شيء، إرْثَ الوالدين، وآثار العائلة. كانت أطراف أصابعي مجعدة

كما لو أنني قضيتُ الليل تحت الماء. الطوقاني، الذي لم يتكلم خلال الأسبوع سوى عن أشياء محددة، قال إنَّ تلك كانت هي المنطقة التي رأى فيها الباحثُ عن الذهب ذيْنكَ الهنديْن المجهوليْن. ومن باب الحذر، ترك في متناوله البندقية القديمة، ثم تقطّب من الخوف جبينُه الطويل والمتناسق، الذي يمنحه مظهراً ذكياً بكل تأكيد. أطفأَ المحرّكَ على بعد أربعمائة متر من الضفة، ووجّهْنا المركبَ مستعينيْن بالمجدافين عبر التيار باتجاه الروافد التي كانت تتوافد متشابكة من قلب الأدغال. قريباً من الضفة، وجّهنا مقدمة المركب نحو أكثر الروافد عرضاً ورأينا أعمدة دخان تصعد من المياه، انغلقت قمم الأشجار فوق رأسينا فشعرتُ كأننا نتوغل في سُرّة العالم. جعلني الحماسُ أنسى غريزة البقاء للحظة فبقيتُ واقفاً على قدميَّ وسط المركب. حينئذ شعرتُ بالاهتزاز، ضربةٌ تشبه انتقال الهواء بسبب مروحية قوية، شيء ما أصاب وجهي بقوة كبيرة لدرجة أنَّ نصف جسدي سقط داخل الماء. مدّ الطوقاني يداً أولى، أمسك يدي وأعادني إلى ظهر المركب. وبيده الأخرى، شغّل المحرك من جديد وعاد أدراجه على الفور. بسرعة كبيرة، عدنا إلى المجرى الرئيسي لنهر بوروس وابتعدنا عن الضفة، متخذين عكس الطريق التي أتينا عبرها. في تلك اللحظة فقط شعرتُ بالألم ولاحظتُ أنَّ السهم اخترق وجهي من جهة إلى أخرى. عندما استفقتُ من غيبوبتي، كان الليل قد حلّ، وتحت ضوء الفانوس كان الطوقاني ينشر جذع السهم بمُديته التي يستعملها في الأدغال. أُغمي عليّ مرة أخرى. حين فتحتُ

عينيّ من جديد، كان النهار وضّاحاً، وكان هناك فوق رأسي سقف من دون غيوم ولا نجوم، تشدُّه دعامات من خشب البيروبا. كنّا في مستوصف وضعته إحدى شركات الخشب في أحد مستودعاتها، في أقرب نقطة من المكان الذي رأينا فيه المتوحشين، على بعد رحلة ستة أيام بالمركب. كان الطوقاني ينظر إليّ بقرف، منكمشاً في ركن من الغرفة. أحدهم، ربما يكون حطّاباً له معرفة بمبادئ الإسعافات الأولية، لم أر منه سوى عين ونصف أنف، همسَ في أذني أنني كنتُ محظوظاً جداً: لم ينكسر أيّ عظْم من عظامك، فقط مزّق رأس السهم سقف الفم واللسان، قال. لم يكن السهم مسموماً، لأنّ الأهالي لا يستعملون سُمّ الكوراري سوى للقنص. وأنت لا تصلح حتى لتكون أكلة، أيها الحضري من ساو باولو، قال لي الحطّاب. ومع ذلك، كنتُ أعاني من حمى مرتفعة ولساني المجروح لا يسمح لي بالكلام. بعد هذا أذكُر فقط أنني استيقظتُ بعينيْن مشوشتيْن، ثم نمتُ من جديد. كما أذكُر الضوء الذي كان يغزو النافذة والدليل واقفٌ أو مقرفصٌ، دائماً في المكان نفسه، مثل كلب حراسة. توقف خدّاي عن النبض، وبأصابعي تمكنتُ من الإحساس بأطراف الغرز الحادة في كلتا الجهتيْن. كانت الجروح ما تزال تلتصق من الإفرازات. عندما تحسّنت حالتي بفضل المضادات الحيوية، زالَ التشويش عن ذهني. اغتنمتُ ساعات النقاهة لأفكر في الأسباب التي قادتني إلى تلك الوضعية، وما كنتُ أطمح إليه وأنا أعرّض نفسي لخطر بذلك الحجم. مبدئياً كان تعطشي للمعرفة، بالإضافة

إلى الرغبة في أن أكون أول من يسجل معلومات عبرت قروناً دون أن تخرُج من دائرة مجموعة معزولة من المتوحشين. لكن، شيئاً فشيئاً، أدركتُ أنني كنتُ أرغب في أن أمحو اسمي العائلي وأصبح شخصاً آخر. في الحقيقة، كنتُ أرغب في أن أكون متوحشاً مثل ذلك الذي رماني بسهم من قوسه، وأنا أملكُ ما يكفي من حرية الاختيار لأقرر إن كان ينبغي للمرء أن يموت أو يعيش، دون أن يخضع لأوامر أيٍّ كان. كنتُ أودّ ملاحظة الحركات العادية التي تشكل حياتهم اليومية. أن أحظى بمعاينة ولادة، من يدري؟ وبالفرصة الحزينة في متابعة طقوس دفن لدى شعب على وشك الانقراض. كنتُ أودُّ أن ألاحظ خفّة القناص، تفاني الزوجة، أن أفهم علاقات الزواج، الجنس وحضور الروح في كل شيء وفي كل مكان. ثم أفك رموز لغتهم، وبعدها أساطيرهم. قد تكون قِيَمي شبيهة بقيم ذلك المسافر عبر «نفق الزمن»: أنا سأسافر إلى ماضي الإنسانية، لكني لن أتدخل في اتخاذ القرارات أو في الأحداث، لأتحاشى بذلك تغيير المستقبل. لعدة أيام، لم أكن أستيقظ حتى تبدأ معاناتي مع الدوار، واستمرت الجروح لأكثر من شهر قبل أن تندمل. بعد ذلك، استأنفت خططي للاقتراب من الهنود انطلاقاً من شيء ما كشف لي الطوقاني أنه رآه في الأدغال خلال غارات سابقة: حقول مهجورة من المنيهوت والبطاطا الحلوة، مع علامات تدلُّ على أنهم كانوا يستعملون أدوات حديدية في زراعتها. صحيح أنهم كانوا منعزلين، لكن سبق أن كان لهم اتصال بالإنسان الأبيض، وهذا ما كان يزيد من فرص نجاحي.

حينئذ لم أكن أعرف أنَّ هذا اللقاء حدث في نهاية القرن التاسع عشر، رغم حدسي أنَّ ذلك كان هو السبب في بقائهم بعيداً جداً عن البيض. مستحضراً هذا الأمر، توجهتُ نحو المحلّ الوحيد لبيع المعدات في المنطقة، تملكه شركة استغلال الأخشاب، واقتنيتُ أكبر عدد من الأدوات يمكن شحنها على متن المركب دون المخاطرة بسلامتنا. انطلقنا نحو منبع النهر في اليوم التالي. بدا صعودُ العودة أكثر بطئاً بكثير، ربما لأنَّ انتظاراتي صارت مضاعفة. كان الطوقاني يتفحصني بدهشة أثناء الليل تحت السماء البنفسجية: أظنُّ أنني لم أر قط إنساناً يمشي بقناعة قوية صوب حتفه. ربما كان يخطط لطريقة يفلت بها بجلده، وهو يعلم أننا نسير معاً نحو هذا الاتجاه لكنّه لا ينبغي استعجال الأمر، طالما أنني كنتُ أعُدُّ الأوراق المالية التي أقدمها له من وقت إلى آخر كي لا يتخلى عنّي في الطريق. ربما كان يخطط ليقتلني ويسرق ما تبقى معي من مال. أمام الفانوس كنتُ أستطيع أن أرى وجهي في المرآة بارتياح، لأنني لم أعد أتعرّفُ ذاتي. من يدري؟ ربما قريباً جداً سوف أنسى اسمي الشخصي نهائياً، ولن أتذكر أبداً اسمي العائلي. لكن، كلما نظرت إلى قدميَّ الحافيتيْن، كنتُ أرى إبهام والدي مكان إبهامي. عشيّةَ وصولنا إلى النقطة التي أُصبتُ فيها بضربة سهم في وجهي، فتحَ الطوقاني فاهُ ليسألني عن مصلحتي في مقايضة عالم البيض بذلك العدم الشاسع. وهو يشير إلى السماء الغائمة والحاشية الرمادية من الأعشاب التي كان يتصاعد منها البخار، قال لي ما يلي: ذلك العدم الشاسع، تلك الأدغال الكئيبة من

دون إله. وهو ينطق بهذه الكلمات، أظهر الدليل الطوقاني الصليب الخشبي المتدلي من عنقه. لم أجبه لحظتها، وما زلتُ إلى اليوم ألزمُ الصمت، عندما أفكّرُ في هذا الأمر. في اليوم الثاني من رحلة عودتنا نحو قمة النهر، اشتدّ المطر: كانت غيوم سوداء تغطي مجرى النهر، وهو ما سهّل عمليةَ الرّسو في جرف رملي قرب الضفة. بشيء من التوجس، أنزلنا بعض الأدوات ووزعناها في دائرة لا يقل نصف قطرها عن خمسمائة خطوة. في مكان بادٍ للعيان، تركنا معولاً مسنداً إلى جذع شجرة، مِدَمّة ومنجليْن شُبِكا بنباتات عارشة. صعدنا إلى المركب من جديد، ثم كررنا العملية في موقعين آخرين على مسافة متساوية من بعضهما. خلال تنقلاتنا، تعرّفتُ وسط الدخان على المغارة النباتية التي تؤدي إلى الرافد حيث أصابني المتوحش بسهمه. كان أملي هو أن يُؤوِّلوا هداياي على أنّها إشارات سلم، لأن الجروح في وجهي كانت بعيدة كل البعد عن الاندمال. أدخل الدليلُ المركبَ في التيار وعُدنا إلى مجرى النهر، حيث قضينا الليلة راسيَيْن عند صخرة. في صباح اليوم التالي، تأكدنا من أنّ الأدوات قد اختفت. تركنا مكانها أدوات أخرى: فأس، منشار يدوي صغير، رفش ومطرقة. تكررت العملية، وبدأتُ أرتاح للنتائج. في الليلة الثالثة، بعد أن خفّ المطرُ، جمعنا القماش ونمنا منهكيْن تماماً. استيقظتُ على صوت ضربات حادة فوق المركب. في المؤخرة، بأسنان بيضاء بادية، كان أحد المتوحشين بوجه أسود وبعينين حمراوين، يكسرُ جمجمة الطوقاني الذي كان مُخُّه الدامي يتناثر في عمق المركب، ويلمع

تحت ضوء القمر.

حدّق بووافينْتورا في كاميرا الحاسوب وحرّك رأسه بتثاقل، يميناً وشمالاً. لاحظتُ أنّ الأصوات من حوله قد توقفت، وباستثناء صرير الكرسي الذي كان جالساً عليه يُحرّك رجليْه بعصبية، كانت الغرفة غارقة في الهدوء. سمعتُ اهتزاز رسالة تصل إلى هاتفي الخلوي: كان أفاتار درع «الصليب الأزرق»، الذي يرمز إلى رئيسي، ينذرني بأنَّ رجال الشرطة اتصلوا بالمكتب بحثاً عني. وقتها فقط انتبهتُ إلى اتصالين من رقم مجهول، لم أسمعهما لأنني تركتُ الجهاز في وضع صامت. بعد أن تنحنحَ، قال بووافينْتورا إنّه لا يعرف كيف بلغَ اليابسة، فقط فتح عينيه ورأى أنّه كان داخل مالوكا يبدو سقفها عالياً جداً، ويمكن رؤية النجوم من خلاله. كان كاحلاه يبدوان مزرقّيْن، مشدودين بضفيرة تِبْنٍ قويّة جداً إلى العمود المحوري في المالوكا. عندما مسحَ عينيه بظهر يديه المشدودتيْن، انتبه إلى أن وجهه كان مغطى بالدم.

مع مرور الساعات، لاحظتُ أنَّ الشرارات البيضاء التي تتحرك مثل يراعات في الظلام كانت هي عيون الهنود، قال بووافينْتورا. مُسْتنِدِينَ إلى جدران المالوكا التبنيّة، كانوا يرقبونني بفضول واضح، لأنَّ تلك العيون التي كانت تتراقص في الظلام لم تغمض في أيّ لحظة. عندما حلّ الصباح، تمكنتُ من عَدّ جروحي: كدمة في الجبهة، انتفاخ آخر في الصدغ الأيمن وحاجب منفلق، فغطى الدّمُ صدري بكامله. ما

أن استيقظتُ حتى دخل هندي إلى المالوكا. همهمتُ بشيء، لكنه تقدّم نحوي وضرب وجهي مرتين بشفرة مديته حتى فتح من جديد جروحَ ضربة السهم. في اليوم التالي، استيقظتُ على أغرب وجه رأيتُه في حياتي! وجهٌ مَدَّني جمالُهُ بالأمل كيلا أموت. كان يُذكّر بالشمس، وعيناه تبدوان منحوتتيْن بالخنجر على جلد من خشب. لا أظن أنني قد أستيقظ مرة أخرى صباحاً وأرى الشمس. كانت تلك العينان تسمحان لي بالحياة، ستشرق الشمس وتغيب عدة مرات، وأنا سأستمر في معاينة صعودها ونزولها عند الأفق، طالما أنَّ ذلك الوجه ينظر إليّ. هي من نظّفت جروحي بالماء، وبلّلت حشوة من الخَمَان في مادة لزجة مخضرّة اكتشفتُ فيما بعد أنها من التِّنْسانهان. بعد ذلك، حرّرتْني من قيودي. بمساعدتها، مشيتُ مترنحاً عبر عتبة المالوكا، حتى بلغنا فسحة حيث كان الرجال في انتظاري. لم يكونوا كثراً. كانوا ينتظمون على شكل قوس دائري، وكانت تلك هي اللحظة الوحيدة التي كانت فيها عيونهم جميعاً مركزة عليّ. في الشهور التي سأعيشها في هذا المكان، سأدركُ ما الأمر الذي طالما كنت أبتغيه: سأصبح غير مرئي، وإنسانيّتي، أو ما تبقّى منها، سوف تمّحي دون أن تترك أثراً.

ذكّرتْني الهنديةُ التي وصفها بووافينْتورا بتلك التي رأيتُها في حلم يقظة على متن سيارة الجيب في هواوتلا بعد وصول الكاجابُّوكوجي. شعرتُ باهتزاز الهاتف الخلوي على الطاولة. اتّصالٌ آخر من الرقم نفسه الذي لم أسمعه في المناسبتيْن

السابقتين. أجبتُ. كان مفوّض الشرطة في واكساكا. لم يقل شيئاً هامّاً، كان فقط يريد جمع معلومات حول الكاجابُّوكوجي. وكان عليّ أن أحضر إلى قسم الشرطة على وجه السرعة، وفي ذلك المساء بالضبط فوق ذلك. كان شيءٌ ما غامض يحدث، وكنتُ مكلفاً بتقديم تفسيرات، رغم أنه لم تكن لديّ أدنى فكرة عمّا ينبغي تفسيرُه. ربما تساعدني متابعة تسجيل بووافينْتورا حتى النهاية، لكني بدأتُ أشك في ذلك عندما رأيتُه يخرج سيجارة قنب هندي من جيب قميصه ويشعله بعود ثقاب، يحرك رأسه ويمدّد جروحه في مؤشر على الابتهاج. الآن، وبينما كان هو المؤهل الوحيد لتقديم تفسيرات، حتى لو كان ذلك انطلاقاً من وراء القبر، ربما سيحتاج إلى ترجمة كي يُفهم كلامُه. كان المتوحشون يتحركون في وقت واحد، عيونهم مركزة عليّ باهتمام يبدو أنّهم تدرّبوا عليه، قال بووافينْتورا، كانوا أجساداً متفرقة لكنها تتصرف بشكل جماعي. وبقدر ما كنتُ أثير رعبهم، كانوا يثيرون الافتتان في نفسي. لاحظتُ أنَّ أجسادهم تغطيها كتابات يُذَكّرُ مظهرُها بالكتابة المسمارية، لكنها كانت رموزاً يستحيل تمييزُ تفصيلها من المسافة البعيدة التي كنتُ عليها. بقيتُ واقفاً أمامهم لوقتٍ لا حصر له، تتفحّصُني نظراتهم المتعددة مثل عيون الذباب. يبدون كأنهم يحاكمونني، لكنها كانت محاكمة لن يكون من الممكن النطق بحكمها سوى عن طريق الصمت. المرأة الشابة التي نظفت جروحي ظهرت من جديد، تحمل آنية من قرع في يديها. كان في داخل الآنية سمكٌ نيْء ومُهلّبيّة من البطاطا الحلوة بدت

لي لذيذة. بعد أن تخفّف جوعي، لاحظتُ أنهم يختلفون عن اليانومامي أو الأراوك في مظهرهم، لأنهم أكثر طولاً ويُصفّفون شعرهم بنفس طريقة الهنود الموهيكان، يتشابهونَ فيما بينهم، رغم اختلاف سنّ كل رجل منهم، ولا وجود لدرجات تراتبية بينهم. باستثناء تلك التي كانت تعتني بي، لم تكن هناك من امرأة أخرى، ولا أي طفل. فكرتُ أنهم ربما يوجدون في مكان آخر، ربما في مالوكا أخرى. وقتئذ لم أكن أعرف أنَّ تلك الشابة كانت هي المرأة الوحيدة في القبيلة. كما أنني لم أكن أعرف بعد أنهم كانوا يسكنون في نفس الفضاء، مالوكا واحدة لا غير، مهما كان عدد الأفراد. وكنتُ أجهل عدد أفراد المجموعة بالضبط. لا في تلك المناسبة ولا في أي مناسبة أخرى لاحقة. لم يقوموا بمحاولات للتواصل معي، عدا أشكال العناية التي كانت تحيطني بها المرأة خلسةً. ملَّ الرجالُ من ملاحظتي فنهضوا وتركوني لفراغ حضوري. في الأسابيع التالية، التي ربما كانت شهوراً، عشتُ مثل كلب مهمّش أتابع الحياة اليومية شبه الملموسة للمتوحشين. يزيد من حدة ذلك اختفاؤهم قبل بزوغ ضوء الصبح وعودتهم مع حلول الليل، عندما يختفون مرة أخرى داخل المالوكا. لم يمنعوني من قنص ما أقتات عليه، ولا من إشعال النار في الخلاء حيث اختبأتُ تحت أنقاض كوخ حقير هجرهُ الباحثون عن الذهب. كنتُ أعدُّ شفقتهم احتقاراً، ولا أستطيع أن أنسبها سوى لامتنانهم لما تلقّوه من أدوات. كانت مخاوفي تزداد كلما فكّرتُ أنني لن أصمد في تلك الظروف. كان يمكن مشاهدة الهندية وحدها على طول

الفسحة، حيث كنتُ أراقبها من مكاني في الأدغال. مع مرور الوقت، أدركتُ أنني لم أكن أثير الانتباه، فاستجمعتُ ما يلزمني من الشجاعة كي أقترب من المالوكا. في ضواحيها وجدتُ أدوات لا تشبه في شيء ما كنتُ أعرفه عند هنود المنطقة. كانت مجْدولةً بحبكة معقدة، وتُكمّلُها قطعٌ من الحديد المصهور وليس من الحجر، كما كان معتاداً. كانت هناك شفرات من الخيزران ذات حواشي حادة محفوظة في قدور خزفية مزينة بكتابات تشبه تلك التي رأيتُها على جلود الهنود. وأشياء زجاجية مهترئة جداً، لا تحمل أيّ علامة تدُلّ على صانعها، مما يوحي أنها لم تكن من إنتاج البيض. أو ربما كانت علاماتها قديمة جداً وامّحت من كثرة الاستعمال. كانت لها أشكال غامضة، ولم أستطع التكهن باستعمالاتها. ليلًا، عند عودتهم، لم يكن الرجال يجلبون معهم طرائد، فقط سلالاً كبيرة مليئة بأسماك فظيعة. انطلاقاً من المالوكا المضاءة بالبريق الأمغر المنبعث من المشاعل، لم يحدث أن وصلتني أي رائحة لحم مشوي. بدأتُ ألاحظهم كما لو أنني أنا المتوحش، انطلاقاً من ركن الغابة الذي أختبئ فيه. غارقاً في الظلام، كنتُ أرى كل ما يتحرك تحت الضوء. في مأواهم الجماعي، كانوا يشخصون بشكل بائس مسرحية الحضارة، بينما أنا، كنتُ حُرّاً لكن سجيناً في طبيعة منيعة، كنتُ أقضم جذوراً متعفنة. فاجأتُ نفسي أفكّرُ فيما قاله آينشتاين بأنَّ النظر إلى أنفسنا بوصفنا أفراداً هو مجرد وهم بصري. صارت رأسي فارغة، قال بووافينْتورا بعينيْن تحدقان في السيجارة بين أصابعه، وانتابني شعور أنني لا أحد.

هكذا، قرّرتُ ذات صباح أن أتعقّبَ الرجال أثناء جولتهم في الغابة. نظراً لما ينطوي عليه من خطر، كان الأمر يتعلق بقرار غبي، لكن الاحتقار الذي كانوا يتعاملون به مع حضوري هو ما حفّزني: إنْ كانوا غير عابئين بأن أتلصص على المالوكا، فلن يكترثوا إن رافقتُهم من دون شك. حينئذ تعقبتهم بصعوبة بالغة وسط أوراق الأشجار، لأنهم يتحركون في قوس مثل ريح عاصفة، يزحفون جماعة عبر دروب ملتوية وسط الأشجار. أحياناً يتلاشون، تخفيهم النباتات الكثيفة. كنتُ أستعيد أثرهم صدفة، وأنا أرى واحداً منهم يتلوى تحت جذوع ضخمة. وفجأة، رأيتُ نهر بوروس، الذي ظهر واسعاً مثل وادٍ يلفُّه الضبابُ. لم أكن قد تمكنت بعد من تحديد مكان النهر منذ ليلة اختطافي. خلف الشجيرات، رأيتُ الرجال يقرفصون كتفاً إلى كتف عند الضفة وهم يلقون في الماء مسحوقاً دقيقاً مُصفَراً عرفتُ أنه نبات التِّمبو. بعد وقت قصير، صعدت الأسماكُ إلى السطح، واعية أو ميتة، فدخلوا وجمعوها بأياديهم كأنهم يقتلعون أحراشاً مُضرّة في الحقول. احتفظوا بالأسماك في سلال كان يحملها بعضهم. بعد ذلك، قفزوا جميعاً نحو النهر، من دون ضجيج ولا صياح. ربما تكون المقارنة غير ملائمة، لكن ذلك كان يذكر بعرض سباحة إيقاعية. قاموا بحركات أذرع في صفوف متراصة، مُخلّفين خطوطاً هندسية مع آثارها فوق السطح، ثم غطسوا في تناسق تام، واختفوا في مياه النهر الموحلة. ظلوا مختفين لمدة من الوقت يصعب تقديرها، بل ظننتُ أنهم ركبوا زوارق كانت تنتظرهم في المجرى الأوسط

لنهر بوروس. ربما عبروا سباحة، وهو ما كان مستبعداً جداً، أو تابعوا السباحة ثم توقفوا في جزيرة يغطيها الضباب الكثيف. برزوا مرّة أخرى من المياه بالطريقة نفسها التي اختفوا بها، يسبحون في انسجام أعادهم إلى الوادي المُحمرّ عند الضفة. جمعوا السلال ودخلوا إلى الغابة. وأنا أتعقّبُهم لمسافة فرسخ تقريباً، تعثرتُ بالجذور المدهشة التي تخرج من المستنقع الذي ساروا عبره. اضطررتُ أن أتخلّى عن تعقّبهم لأنتزعَ شظية خشب وخزت أخمصَ قدمِي. عندما اختطفوني، قام المتوحشون بتجريدي من حذائي، ربما ظنّاً منهم أنني لا أستطيع أن أهرب من دونه. هكذا عثرتُ على مركبي. كان سليماً بمحرّكه في المقدمة، مخبّأ تحت أوراق النخل التي تحميه من الرطوبة. بعد تقدير مكان وجود المركب بالنسبة للنهر والمالوكا، عدتُ -بشيء من الصعوبة، نتيجة الجرح في قدمي- إلى أطراف الفسحة، حيث تأكدتُ من أنَّ الهنود قد احتشدوا في تجمعهم الغامض خارج ناظري. رغم أنّه زاد من أملي في الهروب من هناك إلا أنَّ سبب عدم إغراقهم المركبَ بدا لي غامضاً. في الحقيقة، لم أكن أعرف إن كنتُ أرغب في الهروب، لأنَّ ذوبان الشخص الذي كنتُه كان في مرحلة متقدمة. كان هناك الكثير مما ينبغي اكتشافُه، والشابة الهندية، التي كانت توقفُ جولتها في الفسحة أحياناً لتلقي نظرات طويلة على حافة الغابة التي كنت أختبئ فيها، يمكن أن تعلمني أموراً لها علاقة باهتماماتي العلمية. لكن، في تلك الليلة، كنتُ منهكاً واستسلمتُ لأكونَ طعاماً مفضلاً لحشرة النُّعْرة. كان الاختفاء

المؤقت للرجال في مياه النهر المغطاة بالضباب عند الصباح أمراً يُحيرني، لأنّ الوقت الذي ظلوا خلاله غائبين كان طويلاً جداً كي أفترض أنَّ الغطس كان مجرد تمرين من تمارين الصباح الرياضية. كانوا قد ذهبوا إلى مكان ما، لكن أين ولأيّ هدف؟ هذا ما لم أكن أعلمُه! في صباح اليوم التالي، تعقبتُهم من جديد، وبمهارة أكبر هذه المرة، رغم أنَّ قدمي المجروحة كانت تتلوى وهي تطأ الرمال الموحلة التي تزهر فوقها الأدغال. عندما بلغوا نهر بوروس، وعكس يوم البارحة، لم يقم الهنود بنثر نبات التّمبو على سطح المياه، فقط كرروا الغطس الهندي حتى اختفوا، وابتلعهُم البُعد. لم أتردّد، فرافقتهم ولو بطريقة عشوائية، أكاد أغرق في المياه الموحلة التي كانت تبرز منها طحالب وزنابق ضخمة تشتبِكُ بساقيّ وتدفعني نحو الأعماق، فأصرَرتُ على تحريك ذارعيّ مقتفياً أثر الزبد الأبيض الذي تخلفه سباحتهم. خلال تلك المسافة، رأيتُ حَدَبات فوق مستوى الماء ذكرتني بوحوش بحرية في الخرافات، فخشيت أن تلتهمني أناكُونْدَة ضخمة أو حيوانات غير معروفة. قد يكون ذلك هو مصيري، وكنتُ أشعر أنني مستعد لمواجهته. بعد جُهد جهيد، عندما ظننتُ أنَّ قناعتي كانت تخذلني، تلاشى الضباب، وحدّدتُ، أخيراً، ما كان يبدو منذ البداية ضفّة في الجهة الأخرى للنهر. عندما عانقتُ اليابسة وتعرفت آثار الأقدام على الرمال، اكتشفتُ أنني وصلتُ إلى جزيرة. سرتُ في الاتجاه الذي أخذه الهنود، أسلك دروباً عبر الأشجار حتى عثرت عليهم في النهاية. كانوا كلهم جالسين في منطقة خالية،

ينتظمون في دائرة كأنهم يتحلقون حول مينا ساعة. كان ذلك ما رأيتُه وأنا مستلقٍ تحت شجيرة. وقتئذ كنتُ أعرف أن عدد الهنود لم يعد كبيراً، ربما يفوق المائة بقليل. في موضعيْ عقربيْ الساعة، كان اثنان منهما ينفخان عبر آنيتيْن منحوتتين على شكل عظاءة في خياشيم من ينتظرون جالسين. وحالَما يستنشقُ هؤلاء، يسقطون على ظهورهم، ويظلون ينظرون بعيون جاحظة إلى السماء. بعد ذلك، يظلون متصلبين في الوضعية نفسها، بينما قام واحد منهم، وهو الوحيد الذي لم يستنشق المسحوق المندفع من العظاءة، بشيء لا يختلف كثيراً عن ذلك الذي كان يستعمله الطوقاني المتوفى ليشمّ النشوق «البّاكي» -كما كان يسميه- ثم انْعزل، وفي وسط الدائرة، أخرجَ مدية خيزران مشحوذة، وقطع وريد فخذه عند مستوى الأُرْبيّة. وسرعان ما تشكلت دائرة أخرى، حمراء، كبرت بسرعة في الرمل الذي يمتصها، حول جسد المنتحر، حتى ملأت بالدم الدائرة الكبرى التي يشكلها الرجال المغمى عليهم. كان ذلك أول طقس من طقوس التِّنْسانهان التي عاينتُها، قال بووافينْتورا، وظلَّ عُنفُه راسخاً في ذاكرتي. بعد التغلب على الدوخة، لاحظتُ بناية تشبه مذبحاً أو قبراً قرب الجثة. انطلاقاً من العتمة البعيدة، حيث كنتُ أختبئ، كانت تبدو لي من الحجارة. لكنَّ شكلها الهندسي لم يكن يذكر بالمالوكا الكبيرة المبنية بجدائل متقنة، بل من تلك الأشياء الزجاجية التي عثرت عليها دون أن أستطيع التكهن باستعمالاتها. لعدة ساعات، ظلّ المتوحشون يولّون وجوههم نحو السماء.

مستلقين في دائرة على الرمال، كانوا يشكلون ساعة كبيرة من الدماء بعقارب لا حياة فيها. وبينما هم نائمون، دنت منهم سحابةٌ من الحشرات كثيفة جداً حتى إنّ الظلامُ حلّ نهاراً. وبعد أن اجتاحت الهواء فوق الدائرة، حطّت سحابة الحشرات فوق الرمال المسقية بدم المُنتحر، الذي كان جسده ما يزال دافئاً وغطّتهُ بالكامل في بضع ثوان. كانت خنافس كبيرةً بحجم قبضة اليد. كنتُ قد رأيتُ في منطقة الأمازون حشرات فظيعة كتلك الحشرات، مثل خنفساء فرس النهر، لكني لم أرها قط بتلك الأعداد. بعد ثوان من العمل المحموم، انتظمت ألوانُ الرمال، اختفى الاحمرارُ وتركت الحشرات جثة الرجل. كان يستحيلُ التعرّفُ عليه نظراً لما أصابه من انتفاخ، وكان جلده مليئاً باللدغات. ومثل الرمال، كان قد فقد لونه. بعد أن تغذت على الدم غادرت الخنافسُ باتجاه الأدغال التي قدمت منها. وبينما كان الرجال يستيقظون من غيبوبتهم، بقيتُ مختبئاً وسط أوراق الأشجار، في انتظار الخطوة الموالية. وعكس ما كان متوقعاً، لم يغطسوا في النهر ليعودوا إلى الضفة الأخرى. ساروا في الاتجاه نفسهُ الذي اتخذه سرب الخنافس. بعد ذلك، رأيتُهم يلتقطون الخنافس التي حطت فوق جذوع الأشجار الضخمة كأنهم يقطفون ثمرات تفاح ضخمة سوداء. أخذوا الحشرات إلى الخلاء، حيث أشعلوا ناراً وشوؤها على الجمر فوق الحجارة. كانت تلك أول رائحة شواء أشمُّها منذ عدة أيام، ودخانها يفوح برائحة لحم الخنزير. بعد التهام أحشاء الخنافس، وهو ما فعلوه بشراهة، بدأ الرجال ينقعون الأجنحة

وهياكل الحشرات في أكواب من القرع. لحْظتَها، سمعتُ صوتاً متناسقاً، غناؤهم اللا شعوري، لأنهم كانوا يغنون وهم يطحنون الأجزاء المشوية من الحشرات. تلت ذلك غيبوبةٌ أخرى، دون أن يستلقوا هذه المرة في وضعية مينا الساعة، بل على العكس من ذلك، أخذوا يزحفون وهم يطلقون أنيناً فظيعاً كمن يبدو على مشارف الموت. كانوا يمزقون جلودهم على الحجارة ويفركون وجوههم بأشواك النباتات. كان ذلك هو الجنون الذي حصل بسبب الأحشاء التي التهموها. فقدتُ مفهوم الزمن الذي استغرقته تلك الهلوسة الجماعية، حتى جمعوا في أواني «البّاكي» المسحوق المستخلص من النقع. هكذا اكتشفتُ مصدر التِّنْسانهان، خنفساء يتغذى على الدماء يعيش في تلك الجزيرة، مختبئاً في قشور أوراق الأشجار والجذوع التي يُفرِّخُ داخلها بسرعة. انتظرتُ أن يتوجه الرجال عائدين إلى النهر، وحين غطسوا، اقتربتُ من البناية على شكل قبر كي ألاحظها بشكل أحسن. كانت من حجارة مشدودة بطريقة متقنة نوعاً ما بواسطة نوع من الصلصال أو الطين، لكنها تبدو من كثب مغطاة بشقوق دقيقة جداً تدُلّ على قِدمها. وفوق ما يشبه ذلك الملاط الذي يغطيها، كانت هناك كتابة على شكل نقوش بارزة، قال بووافينْتورا، لم ألاحظها تقريباً بسبب حجمها الدقيق جداً وما كان يعتريني من فزع. بعد أن قال هذا، فتّشَ بووافينْتورا الطاولة أمامه، وحين حدّد مكان القلم انحنى على ورقة أمام الشاشة، وراح يكتب أو يرسم، شبه مرتبك، كاشفاً عن الشعر المتناثر فوق قمة رأسه. مدّ خربشة مرتعشة نحو

كاميرا الحاسوب كدتُ لا أراها، لأنها بدتْ شبه مُشوّشة. بعد ذلك بدأ يظهر بوضوح أكبر فأكبر ذلك الرّسمُ المشكل من خطّ متواصل ودائرة، رغم أنه ظلّ غامضاً بالنسبة لي. لا بد أنني كنتُ عطشانَ، لأنه ذكّرني بفتّاحة القناني، أو بمقبض سدّادة علبة جُعّة. مكتبة سُر مَن قرأ

في البناية لم يكن هناك من نقشٍ آخر غير هذا الرسم، قال بووافينْتورا وهو يسحبُ الورقة من أمام عدسة الكاميرا. تملّكني هوسٌ بتجريب التِّنْسانهان خلال الأيام التي تلت أول توغُّل للهنود في جزيرة الضباب. كان وجود الهنود يتمحور حول طقس جمع الخنافس في ذلك الخلاء قرب القبر. غير مستعدين للكلام أو الحديث معظم الأوقات، كانوا يعيشون في كآبة أيامهم الخالية من النساء أو الأطفال، في انتظار القيام بزيارة الجزيرة، التي كانت وتيرتها تتحدد بدورة توالد الخنافس. هكذا، كان البحث عن الطعام، العمل في الحقول، الأيام والليالي التي يراقبون خلالها النجوم باهتمام خارق، مركزين على الصمت في الفضاء اللا متناهي، كما لو أنهم حين يقومون بذلك يبرهنون على أنَّ امتياز الأموات هو أنهم لا يموتون مرة أخرى، كل هذا لم يكن سوى عشية لحظة ينتظرونها في ألم، قد يتجاوزون خلالها، بواسطة التِّنْسانهان، حدود الضجر التي تمثلها الحياة. لكنَّ بعضاً من أولئك الرجال، الشبان الأقوياء، كانوا عرضة لكآبة أقوى من الآخرين، تنهكهم لدرجة أنهم يتركون أنفسهم يموتون من الجوع. كان بعضهم يبلغ حدود

الانتحار، كذلك الذي عاينتُه في الجزيرة. لم أتأكد قط إن كانت هذه التضحية جزءاً لا يتجزأ من الطقس، شرطاً من شروطه أو مجرد صدفة. ربما فعلاً غير متوقع يقدم عليه من يقرر الانتحار هناك، بينما يكون رفاقه نائمين. استرعى انتباهي يوماً أنَّ الرجال أوقفوا عملهم وهبّوا مسرعين إلى المالوكا. ومن هناك خرج نحيب خفيض، فرأيتُ، من بين شقوق المالوكا، رجلاً قتل نفسه بقطع الوريد عند مستوى الأُرْبيّة. كنتُ أُتابع انتظارهم بقلق، وأصبحتُ أزور جزيرة الضباب عندما لا يكونون هناك. لسبب من الأسباب، ربما يكون جزءاً من الطقس المقدس، لم يكن يعنيهم التأكد من طريقة توالد الخنافس. بعد ذلك، اكتشفتُ أنَّ إناث الخنافس ينضجن بسرعة أكبر، ويبلغن حجماً شبه مثالي للنّقع بحوالي أسبوعين قبل الذكور. مقتنعاً بأنني كنتُ على صواب، قررتُ أن أحاول التجربة. في الوقت المناسب، قتلتُ سلحفاة فوق الرمال التي تحيط بالجزيرة. مستغلاً الجروح الناتجة عن الرمح الذي ارتجلتُه لقنصها، سقيتُ بدمها الرمال حول القبر. لم يتأخر سرب كبير من إناث الخنافس في الظهور، فقبضت على اثنين أو ثلاثة هناك بالضبط، بينما كنَّ يمتصصنَ البطن الطري للسلحفاة، التي شققتُ قوقعتها بهدف استجلابها. لم تكن ناضجة تماماً لكنها كانت ضخمة، وكانت تطلق طنيناً طويلاً ورنّاناً فهمتُ مع حماسي أنّه يوحي بالسعادة. بعد ذلك، حرّكتُ دون صعوبات كبيرة بقايا المذبحة، لأنَّ الحشرات كانت تتكفل بامتصاص أكبر جزء من الدم الذي أهرقتُه. على شاطئ منعزل، بعيداً عن مكان الطقس المقدس

للمتوحشين، شويتُ إناثَ الخنافس والتهمتُ أحشاءها بتلذّذ. ذكّرَني طعمُها بمذاق كبد الخنزير، لكنها كانت أكثر مرارة ونسيجها لين. بواسطة عود دقيق من نبات الخروع، استنشقتُ المسحوق الناتج عن نقع أجنحة الخنافس وهياكلها الخارجية. وسرعان ما سمعتُ صوت أبي ملتصقاً بأذني اليمنى، يهمس تهديداته المعتادة لأنني اقترفتُ شيئاً غير لائق، كان يتحدث بصوت خفيض جداً حتى لا تسمعه أمي، قال بووافينْتورا، وهو ما كان يزيد من فزعي. تخيلتُ ما قد يكون قادراً عليه إن هي اختفت في يوم من الأيام، فقد كان رجلاً عنيفاً. عندما ولّيتُ وجهي جهة الصوت، شعرتُ بنَفَسه المميز، الرائحة الكريهة التي تفوح من أولئك الذي يعانون من أمراض المعدة، وحينها سمعتُ على شمالي الصوت الحاد لأمي، فالتفتُّ لكني لم أرَ عينيها المشرقتين لأنها كانت تحجبُهما عصابةٌ تغطي وجهها بالكامل. كان الأمر نفسهُ يحدث مع والدي، وحينئذ لاحظتُ أنَّ جدي وجدتي كانا إلى جانبه، يهمسان شيئاً فظيعاً في أذنيه، مقرفصين بجانب والدي بوجهيهما المعصوبيْن، وكان الأمر نفسه يحدث لأمي: كان أبواها يهمسان أشياء في أذنيها، بوجهيهما الميّتيْن المغطييْن بعصابتيْن، وهكذا بشكل تتابعي، أو تراجعي، بالأحرى، كان أجدادُ أجدادي يقولون أشياء في آذان أجدادي، وكان آباءُ أجداد أجدادي يقولون أشياء في آذان أجداد أجدادي، هكذا نحو الأمام أو إلى الخلف، في متوالية من الكروموسومات تصل إلى الجحيم، إلى أصل الانحطاط. عندما استعدتُ وعيي، كنتُ أحدق في قدمي اليمنى، ولم أعد

أرى فيها الإبهام: أثناء الغيبوبة، كنتُ قد استأصلتُ ذلك الجزء من والدي المنغرس في ذاتي. هذه هي الذكرى الوحيدة التي أحتفظ بها من تلك المناسبة في جزيرة الضباب. في الأيام التي تلت ذلك شعرتُ بالألم، لأنَّ صداع ما بعد الغيبوبة الذي أصابني كان قاتلاً، حتى إنّهُ كاد يقتلني من الجوع. بعد ذلك، لففتُ الجرح الناتج عن بتر الأصبع بالوحل الأسود الذي جفّ. كانت نبضات القدم قوية جداً حتى إنّها كانت تصعد إلى الرأس. خلال الليلة الثالثة أو الرابعة التي قضيتُها دون أن أنهض، استيقظتُ ورأيتُ شبحاً يغادر كوخي الحقير ويتلاشى في ظلام الأدغال. نمتُ من جديد. في الصباح علمتُ، من آنية القرع الخاصة بالأكل التي تُركتْ قرب سرير الأوراق اليابسة حيث كنتُ مستلقياً، أنَّ الهندية قد زارتْني. كانت قدمي ملفوفةً في نباتات لا بُدّ أنها علاجيّة. كان الهوس بالتِّنْسانهان قد امْتدَّ إلى قبر جزيرة الضباب. قِدَمُه والموادُّ التي بُني بها، شكلُه الغامض الذي يعلوه الرسم المنقوش، كل ذلك كان يفتنُني. فكرتُ أنه، ربما مع انبعاث من كانت ترعاني، قد أتمكن من أن أتعلم برفقتها المبادئ الأساسية للغتها، وهكذا قد أكتشف أصول ومعتقدات شعبها، وما هو دور التِّنْسانهان وعلاقته بالقبر السري في الجزيرة في ذهن المتوحشين. لكنَّ الهندية كانت تظهر وتختفي، تماماً مثل الرجال خلال خروجهم إلى الأدغال. أمام احتمال غيابها، ربما يقومون بإخفائها في منطقة أبعد، محترزين مما يمثله حضوري من تهديد في المنطقة. لكنَّ شكّاً كهذا لم يكن له أي معنى، لأنه منذ وصولي كان أولئك

المتوحشون، الذين كنتُ ما أزال أجهل عرقهم، يتجاهلونني تماماً. خطّطتُ لأظلّ متيقظاً عندما تظهر الهندية، ربما نتحدث معاً لغة مشتركة، مثل لغة شعب الطوقاني، وكنتُ أنوي أن أطرح عليها سؤالاً واحداً، قال بووافيْتورا: سأسألها إن كنتُ حيّاً أم ميّتاً.

سمعتُ خبطاً على الباب الأمامي من المنزل الكبير. كان أحدهم يصيح باسمي العائلي ولم أتعرّفهُ. كان الجرس المُصمُّ للآذان الذي وضعهُ والدي بسبب ضعف سمعه يرنُّ دون توقف. نظرتُ إلى هاتفي الخلوي: ثلاث مكالمات لم أجب عليها. منغمساً في تسجيل بووافيْتورا، انتبهتُ إلى أنني ضيعتُ موعد الحضور إلى قسم الشرطة. أوقفتُ الفيديو فتجمّدَ فمُ بووافيْتورا على تكشيرة غريبة الأطوار، مثل تكشيرة قناع جنائزي. كانت عيناه محمرتين الآن وترسلان ومضات جنون لم أنتبه إليها يوم تعرّفنا على بعضنا، أو لم أرغب في رؤيتها. متجمّدتين بتلك الطريقة، في مدار الشاشة، كانت العينان تكتسيان مظهراً مهدداً. دفعتني إجازتي المهنية على إثر الانتحار الجماعي للكاجابُّوكوجي إلى إهمال تفحُّص الهاتف الخلوي. ما تزال هناك خمسةٌ وخمسون دقيقة على نهاية التسجيل، وكان بووافيْتورا، الذي استهلّهُ، متردداً وخائفاً، قد استُبدِل ببووافيْتورا آخر، كان التزامه الأخلاقي مع شعب منعزل لم يَعُد يليق بعالم من علماء الأنثروبولوجيا.

أصلحتُ انكماش قميصي وعقدتُ أزراره، ثم فتحتُ

باب القاعة متمتماً بكلمات اعتذار عن التأخير. واقفيْن في الشرفة بهيئة خاملة، لم يكن صاحبا الشاربيْن بأدنى حاجة كي يخبراني بمهمتهما: كانا شرطيّين أرسلهما المُفوّض ليقتاداني إلى قسم الشرطة على أكبر وجه من السرعة. وهذا ما قاما به ببرود احترافي، دون إظهار أي تعاطف مع حالة حدادي، أو أي احترام لفترة إجازتي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

لن يكون هناك موت آخر
في لابْريا، ١٩٨٠-١٩٨١

عندما قدَّما نفسيْهما، لم يذكر الشُّرطيان اسميْهما. بما أنَّ كليْهما كانا أصلعين ولهما شاربان، سمّيتُهما في السر هيرنانْديث وفيرنانْديث. من المؤسف أنهما لم يكونا يضعان قبعتيْن بوشاحيْن كما في مغامرات تانْ تانْ.

لم يكن ثمة حديث داخل سيارة الشرطة التي كانت تعبر وسط واكساكا، كما لم يكن هناك صمت. كان سكان أصليون من المازاتيكو يقتسمون الأرصفة مع أُسَر من المينونايت، كلهم على ما يبدو وصلوا للتو من القرن السادس عشر، كما لو أنهم جزء من مؤامرة سياحية موجودة في كل مكان، منشغلة بتحويل حياة سكان المدينة إلى جحيم. علاوة على الضجيج القادم من الشارع، كان المذياع يبث نشرة منتصف النهار ويقدم أخباراً قادمة من محطة بايكونور الفضائية، في كازاخستان. في غضون أيام قليلة سيقوم البرنامج الفضائي الصيني بإطلاق مركبة تيانتانغ ١، قال الصحفي، وهي كلمة تعني حسب قوله

«جنة»، يقودها زوجان تتلخص مهمتهما الصعبة في ملء المريخ بصغار من الصينيين، ليتركا الكوكب مكتظاً مثل ساحة المدينة في تلك الساعة، وأحْمرَ بشكل أكثر حدة. لم يذكر التقرير ذلك، لكنّي كنتُ أعرف أن تيانتانغ كان أيضاً هو اسم أشهر بيت دعارة في شانغهاي.

لم يكشف لي هيرنانْديث وفيرنانْديث ما كان يجعل حضوري إلى قسم الشرطة أمراً حتمياً. للحظات فكرتُ من جديد في فيديو بووافينْتورا: إذا لم يكن هناك في أعالي نهر بوروس من امرأة أخرى غير تلك الشابة التي رآها، فإن بعض الرجال الذين وصلوا إلى هواوتلا لا بد أنهم هم الرجال أنفسهم الذين يعودون إلى اتصاله الأول بالكاجابُّوكوجي سنة ١٩٨٠، أولئك الذين كانوا وقتها شباناً وصاروا شيوخاً حين وصلوا إلى المكسيك. كنتُ أودّ لو أعرف بعد ذلك كيف تقرّب من الهنود إلى درجة كاد أن يصبح معها حاميهم، ولو من بعيد. قد يكون ذلك غير محتمل، لكن ربما يفكر الهنود بطريقة بووافينْتورا نفسها في جزء الفيديو حيث ضغطتُ على زرّ التوقُّف، ويرونه مثل شبح لا ينبغي إزعاجه. كنتُ أتطلّع إلى ما كان سيقوله مفوض الشرطة حول الجثث، وأكيد أنها عقدة بيروقراطية وتافهة، فقط وحده هذا الموظف المعين من لدن اللجنة الوطنية للنهوض بالشعوب الأصلية قد يستطيع فكّها، حتى لو كان في إجازة. بعد الاستماع إلى المُفوّض، سأعود بسرعة إلى البيت لأتابع الفيديو حتى النهاية.

كان القبر في جزيرة بوروس شيئاً محيراً بدوره. أبرزَ بووافينْتورا شكله المجهول، الذي يشبه شكل القطع الأثرية الزجاجية التي عُثرَ عليها في المالوكا. رغم أنه لم يكن يبدو مثل بناية من بنايات الكاجابُّوكوجي، كان يقام من حوله طقس جمع التِّنْسانهان المقدس. كنت قد بدأتُ أستأنسُ ببعض المصطلحات الأنطولوجية الخاصة بالشعوب الأصلية مثل «مانا» عند الرابانوي، الذي يعني القوة الموصلة التي تسمح للأحفاد بالارتباط مع أسلافهم من الأموات، أو التّوبّونا. عندما علّمني إلْنيغْرو ميتافيزيقا شعوب المازاتيكا حول التيوناناكاتل، قارن ذلك بالمانا. في بداية القرن الحادي والعشرين، وقبل أن يختفي الشيلي في مياه المحيط الهادي، كان الرابانوي أول شعب من الشعوب الأصلية يطالب بإعادة «الإيفي توبّونا»، رفات أسلافهم التي كانت في متاحف أوروبا وجامعاتها، لأنه من دونها كانوا يعدُّون أنفسهم منفصلين عن ماهيَّتهم. لقد انقطع ما كان يربطهم بآبائهم، إذا صحّ التعبير، وكان الرابانوي وقتئذ يتكلمون لوحدهم مع الفراغ، من دون أي أحد في طرف الجهة الأخرى من الخط الهاتفي يمكن أن يجيبهم. منذ زمن طويل، لم تعد مقابر البيض تحتفظ بأي شيء ذي طابع مقدس، إلا في حالة ما إذا كان مدفوناً هناك نجمٌ من نجوم الرُّوك، كما في مقبرة بير لاشيز في باريس. إن القبور أشياء أثرية أو تملكها الدولة، إن كانت تنتمي إلى شخصية تاريخية هامّة، من سياسيين أو دكتاتوريين عموماً. في هذه الحالة لا تعدو أن تكون رموزاً لبريق قومي خافت جداً، ومزيف فوق ذلك. في

المجتمع الأبيض، ثمة أشياء قليلة يمكن مقارنتها بالمانا، ربما فقط بنظريات الفيزياء حول الزمن في تصوراتها الأكثر تحديثاً، بنظرية النسبية ونظرية فيزياء الكَمّ مروراً بمُسرّع الجزيئات. ربما يمكن مقارنة المانا بوعي جماعي يتحرك بسرعة تفوق سرعة الضوء، بمعدل ثلاثمائة كيلومتر في الثانية، فيكسّرُ الوهمَ المتمثل في التمييز بين الماضي، والحاضر والمستقبل. بإعادة رفات الأجداد التي يطالب بها الرابانوي، قد يلاحظُ هذا الوعي نفسَهُ في كل الصيغ الممكنة من ذاته في مستوى وحيد ومتواصل، كما لو أنه في سهل من السهول يقوم كل أفراد الأجيال التي لا تُعدُّ من شعب ما بالحديث جنباً إلى جنب، حديثٍ لا نهاية له. كنتُ قد عرفتُ شيئاً يشبه هذا الأمر مع الكاجابُّوكوجي في هواوتلا، كما عرفهُ بووافينْتورا في جزيرة الضباب. لكنه حين تذوّق التِّنْسانهان في غياب الهنود، كان واضحاً أن بووافينْتورا قد فتح أبواب كان ينبغي لها أن تظلَّ مغلقة.

أخذت السيّارةُ وجهةً معاكسة لوجهة قسم الشرطة، فسألتُ هيرنانْديث وفيرنانْديث إن كُنّا سنمُرُّ بعنوان آخر قبل ذلك. بحركة متزامنة وآلية شيئاً ما تجعلهما شبيهين بكلبيْ صيد مشدودين إلى طوقين بسلسلتين قصيرتين جداً، نظر كلاهما إلى المقعد الخلفي بهيئة من يتأمّلُ. لمدة ثانية واحدة خشيتُ أن ندعس طفلاً يعبر الشارع لسوء الحظ بحثاً عن كُرته، بينما كان من يتحكم في المقود، لنَقُل هيرنانْديث، ينظرُ من جديد إلى

الأمام، ثم ردّ فيرنانْديث: إننا سنذهب إلى مستودع الجثث في البلدية، حيث ينتظرنا المُفوّض برفقة خمسين جثة أُخرجت من القبور. فضلتُ أن أمتنع عن طرح السؤال وبقيت أتأمل هندياً من المازاتيكو يبيع دمى خشبية في كشك عند زاوية الشارع: كانت أرانب من الذكور والإناث نحتها الصانع التقليدي بسكينه تمثل رموزاً مضحكة للخصوبة المكسيكية، لكنه يبيع أيضاً جماجم وهياكل عظمية، وهي نفسها التي كانت تجلجل في المرآة العاكسة، وتزين لوحة القيادة المغبرة في سيارة كامارو القديمة التي يستعملها الشرطيان. بما أنَّ الاحتفال بالموت كان حاضراً في كل مكان من واكساكا، كان من المدهش أنني لم أطأ قط مستودع الجثث في البلدية، مكان عادة ما يدخله الناس مستلقين. حتى الآن، على الأقل، كنتُ أستطيع أن أكون سعيداً بذلك. غادرت السيّارةُ المركزَ التاريخي للمدينة، تاركة خلفها نساء من المينونايت شقراوات بملابسهن التي تعود إلى القرن السادس عشر، نساء من المازاتيكو بأكشاكهن التي يبعن فيها الأعشاب، ومناظر البنايات الاستعمارية التي كان يُحتفظُ بها فقط للسياح حتى يستطيعوا السفر عبر الزمن نحو ماضٍ من المعمرين والهنود. متجنبين البائسين الذين يتسكعون في الشوارع بحثاً عن أي شيء يقومون به، بلغنا حدود الضاحية حيث كانت المدينة تلتقي بحاضرها الملطخ بخطوط فوضوية من الأعمدة الكهربائية، عبر أزقة غير مُسفلتة وبنايات خرّبتْها التسرُّباتُ المائية.

كان مفوض الشرطة في انتظاري في رواق معهد الطب الشرعي ولم يكن محياه يشي بالفرح. بعد أن حيّاني، قال إنّ النشطاء أنفسهم من المدافعين عن حقوق السكان الأصليين الذين جلبوا الكاجابُّوكوجي إلى هواوتلا، كانوا الآن يطاردونه بسبب نبش الجثث. لم تكن منظمة «Survival International» تطالب بإعادة رفات الهنود إلى الأمازون فحسب، بل تشترط أيضاً إعادة الأحشاء إلى أجسادهم. كانوا يستندون في ذلك إلى القانون، خصوصاً إلى دعوة غامضة رفعها اليانومامي قبل عدة عقود، قال المُفوّض. ثم راح يمشي عبر الرواق باتجاه عمق البناية، مشيراً إليّ أن أتبعه تحت الضوء المرتعش لمصباح فلوري يشتعل وينطفئ، مطلقاً طنيناً مثل طنين خنفساء مصاص دم جائع. عندما اتصل مبعوثو «المجلس التبشيري للسكان الأصليين» بالهنود لأول مرة في سنوات السبعينيات، جمعوا عيّنات من الدم لدراستها. بعد عقديْن طالبَ اليانومامي بإعادة دمهم، بدعوى أنهم قد تعرضوا للسرقة. ربح أبناء الداعرة القضية، قال المُفوّض، وأعادوا إليهم الدّم. أما أنا، إن رفعتُ دعوة ضد الدولة مطالباً بكل الغائط الذي أخذوه مني أثناء تلك الفحوصات التي قاموا بها في المدرسة خلال فترة محاربة الدودة الخرطونيّة، هل تظنُّ أنهم سيعيدونه إليّ؟ قال المُفوّض مستعرضاً في ابتسامته لمعانَ نابٍ ذهبي ومضَ في الظلام. وأخيراً تلاشى الضوء الخافت في الرواق، وقطعنا بضع خطوات أخرى دون أن نرى شيئاً. شممتُ رائحة فورْمول قوية، سمعتُ ضجيج باب يُفتحُ بتثاقل وطقطقة المفتاح الكهربائي

الذي شُغّل: أمامنا برزت خمسون جثة ممددة فوق نقّالات معدنية مدثّرة بأغطية بيضاء. انتبهتُ إلى أنَّ اللافتة فوق الإبهام البارز بالقرب مني لم تكن تحمل أي معلومة مكتوبة، فقط كلمة كاجابُّوكوجي ورقم ١٣. بعدها جاء كاجابُّوكوجي ١١، كاجابُّوكوجي ٢١، كاجابُّوكوجي ٧ وكاجابُّوكوجي ٥٠، أرقام وُضعت خارج أي ترتيب معلقة بإبهامات تشبه كثيراً بعضها بعضاً، سلالة من الإبهامات العائلية. قوّضت رؤيتُها المزاجَ الجيد الذي بدأتُ أستعيده بعد أحداث هواوتلا، لتعيدني إلى حالة الخمول التي كنتُ عليها عند بداية مشاهدة الفيديو الذي أرسلهُ بووافينْتورا.

من بين مشاكلي الحالية، كانت مشكلة «Survival International» هي أقلها حدة، قال مفوضُ الشرطة وهو يمشي عبر الممرات وسط النقالات: أتمنى أن تخلّصني من أكثرها تعقيداً. وهو يقول ذلك، توقف أمام لافتة الكاجابُّوكوجي رقم ٥٠. بحركة سريعة، سحب المُفوّض الغطاء التي يغطي الجسد من الرأس حتى الخصر، عارضاً رجلاً أبيض بعينين بارزتين في وجه متصلب بدا أكثر وضوحاً تحت الأضواء القوية في مستودع الجثث في البلدية. وعلى الفور تعرّفتُ الرجل الطويل نصف الأحدب الذي قدَّم التِّنْسانهان خلال ذلك الطقس في هواوتلا. لكنه لم يكن بالقامة نفسها، ولم يكن له اللون البرونزي نفسهُ كما كان من قبل، فظننتُ أنَّ الموت ربما قلّصَ قامته وجعلهُ أبيض اللون.

كما يمكن أن ترى، قال المُفوّض: هذا مختلف عن الآخرين، ويصغرهم سناً فوق ذلك. قدّرَ الطبيب الشرعي أنَّ عمره أربعة وخمسون عاماً، ليس أكثر من هذا. يبدو خلاسياً، في الحقيقة، لكن لا بدّ من أن يكون شخصاً دخل إلى البلاد وفق الشروط القانونية، ببطاقة هوية عند تقديم جواز السفر، وهو ما لم يحدث. وهنا تكمن المشكلة: ترى مصلحة الهجرة أنّ مسرحية اللجوء السياسي الذي تقدّم به الكاجابُّوكوجي ربما تكون قد استخدمت فقط لإدخال هذا الشخص إلى بلادنا. ربما يكون مجرماً، تاجر مخدرات أو إرهابياً. على أي حال، حتى إن لم تتأكد هذه الفرضية، فإنّ المكتب الذي تنتمي إليه يا سيدي لم يُدْلِ بالحقيقة في هذه القضية، ويمكن أن يتحمل العواقب الوخيمة لهذا الأمر. سوف تسقط رؤوس، أفهمتَ؟ قال المُفوّض بنابه الذهبي الناتئ نحو الأمام، ورأسُكَ يا سيدي يمكن أن تكون هي الأولى التي تلمس أرضية منصة الإعدام. دون إعارة كثير من الاهتمام للمُفَوّض، أكدتُ أنّ مكتبنا لم يُخبَرْ أيضاً بوجود شخص ذي ملامح قوقازية بين السكان الأصليين، وسألتُه إن كان بياض الجثة يعود إلى عملية تبريد الجسد من أجل الحفاظ عليه. مبرزاً سنّهُ بشكل أكبر، كما لو أنه يريد أن يتناول أكلة التّاكو، أجاب المُفوّض بالنفي، وقال: إنّ الجسد ابيضّ عند الغسل، لأنه كان قبل ذلك مغطى بمادة جعلته أحمر اللون، مما تطلّب غسله عدة مرات حتى تزول نهائياً. إنه الأوروكوم، مُلوّنٌ طبيعي يستعمله الهنود. دون ذكر فيديو بووافينْتورا، لا أعرفُ لأي سبب، فقط كان شيئاً خطراً

عليّ لحظتها (من يدري؟ ربما كي لا أبدو أكثر إثارة للشكوك)، أخبرتُ المُفوّض أنني سأتكلف بإجراء بحث، وقريباً سوف أزوّده بمعلومات حول أصل الرجل الممدّد هناك فوق نقّالة معدنية جامدة، بعينين مغمضتين وبوجه حالم كأنه كان لحظتها يوجّه سهماً نحو خنفساء ضخم يندفع عبر غيوم السماء الثالثة.

في طريق العودة إلى البيت، بينما كان هيرنانْديث وفيرنانْديث مستمرّيْن في صمتهما، نظرتُ إلى هاتفي الخلوي ورأيتُ بالصدفة في شبكات التواصل الاجتماعي بعض صور إقلاع مركبة تيانتانغ ١ نحو المريخ. كانت عملية الإطلاق ناجحة على ما يبدو، لكن بعد مغادرة الغلاف الجوي بدقائق فقدت أبراجُ المراقبة في محطة بايكونور الفضائية الاتصال بالمركبة. كنتُ أشعر أنني في الوضع نفسه، بما أنني أستطيع متابعة مشاهدة فيديو بووافينْتورا، لكنه لم يعد بإمكاني أن أطرح عليه أسئلة. إن لم يتحدث في الدقائق الموالية عن الكاجابُّوكوجي المزيف، لن نتبيّن جميعاً أي شيء. للحظة فكرتُ أنَّ الفيديو لم يكن له أي وجود قط، وأنّ أول اتصال لبووافينْتورا بالهنود لم يكن سوى كابوس نتج عن حالة الأسى التي ألمّت بي. في شوارع الحي التاريخي لواكساكا، ربما بسبب ساعة القيلولة والشمس في كبد السماء، لم يكن هناك من أثر للمينونايت، والمازاتيكو ولا حتى السياح. كان الصمت المخيم على الشوارع مثل الصمت المخيم على راديو الاتصال بمركبة تيانتانغ ١.

بعد العودة إلى صالة المنزل، أمضيتُ بضع لحظات أتأمل اللباس الرسمي للكاجابُّوكوجي داخل إطاره على الجدار. كان يُظهر تصميماً من قطعة واحدة، لأنّ الجذع والساقين يرتبطان حتى الرأس، الملفوفة ابتداء من الرقبة في غطاء رأس مستدير. كان يُذَكِّرُني بالأفلام القديمة وأحلام الطفولة بالأبيض والأسود. يبدو كأنه قشرة خلّفَتْها من ورائها حشرةٌ ضخمة. كانت طريقة نسج الثوب المتشابك مدهشةً، بكتابات متكررة وُضعت على طول سطحه في شرائط بدت لي نماذجُها تجريديّةً. كنتُ أتساءل حول الأسرار الممكنة التي كانت مشفرة هناك، ولا يستطيع أي أحد فكّ رموزها. في الحقيقة، كان مظهرها مثيراً للقلق. ذات مرة، قال لي والدي: إنّ الكون شيفرة لها من يفكّ شفرتها: الإنسان. وأنا أتذكّرُ هذه الجملة التي قالها والدي، شعرتُ أنني الأكثر غباء بين بني البشر؛ لأنني، في الحقيقة، لم أكن أشعر بأي رغبة في شرح ما كان مكتوباً هناك في أيقونات دقيقة، ولا في البحث في الماضي. هذا الماضي الذي قد أتخلص منه بكل فرح، لو كان بوسعي، وحتى من العبء الذي أحمله في كتاب حمضي النووي.

سوف أسألُها إن كنتُ حياً أم ميتاً، كرّرَ بووافينْتورا عندما ضغطتُ من جديد على زرّ مشغل الفيديو، وأنا أحرره من الجمود الذي تركتُه فيه مؤقتاً على الشاشة. لكني لم أطرح أي سؤال يذكر للهندية، تابع، على الأقل في الوقت الذي تعرّفتُ عليها فيه. كانت الحياة اليومية في تلك الأدغال موشومة برتابة

مطلقة، كنتُ أتحملها بغضب لا يمكن أن يوقظهُ غير الملل. لم أتأخّر في التسكع في الغابة، لأنّ الأدوية الكاجابُّوكوجي الطبيعية كانت قوية وأنقذت قدمي من الغرغرينة. كرّرتُ خطتي السرية في استعمال التِّنْسانهان مرتين على الأقل، وقمتُ في المرة الثانية بإعداد كمية وفيرة زائدة احتفظت بها في «البّاكي» الذي صنعته من خشب الماهوجني الجميل. كانت مناظر الغابة حول الجزيرة تصيبني بالخوف، أشعر بأنني مراقب من شيء ما في الهواء، من طائر جارح قد يخرج من العدم ويحملني بين مخالبه. من شيء يحوم فوق رؤوسنا. وسط أوراق الأشجار كنتُ أرى، أو أظن أنني كنت أرى، وحشاً فظيعاً له رأس حشرة، فتخيلتُ أنه يمكن أن يكون هندياً يرتدي لباسه الرسمي. كان قبر جزيرة الضباب يسكن كوابيسي، وبنْيتُه التي لا يمكن تصورها تصيبني بالرعب. بدأتُ أعاني من الأرق، أصبحتُ مثل مُفترسٍ ليلي يعيشُ على قنص قوارض صغيرة وعلى ما يتركه الهنود من بقايا. بعد أن تملّكني هذا الإحساس بالرعب الذي عوّض افتتان البداية، تأكدتُ من جديد من اشتغال المركب. بقي حيث خبأه الهنود. كان تحليلي الأول موفقاً: عن طريق ربط الخيوط مباشرة كان تشغيلُ المحرك ممكناً، وظلّت غالونات المحروقات سليمة. وسط ظلام الغابة، كان الشيء الوحيد الذي يتحرك هو زوجُ عينيَّ البيضاويْن.

في المرات التالية التي تناولتُ فيها التِّنْسانهان، تكررت حالات الثمالة، قال بووافينْتورا، كما تكررت حالة شبه الموت

داخل البيت الحقير للباحثين عن الذهب. حين تناولته في المرة الثالثة، بقيت خمسة أيام دون أن أتمكن من النهوض. على الأقل، حين استيقظتُ لم يكن ينقصني أي جزء من جسدي، كما في المرة السابقة. كان شفاء قدمي قد اكتملَ، وبقي جلدٌ وردي في المكان الفارغ الذي كان يشغله الإبهام سابقاً. في انهياري، بالكاد كنتُ أميز يوماً عن آخر، وأرى آنية القرع مع الطعام المتروكة فوق الأرضية قرب سرير التبن فقط في الفترات القصيرة التي أستيقظ فيها، مصاباً بالدوار. آكلُ قسطاً قليلاً وأتقيأ معظم ما أبتلعهُ. اعتمدتُ على تطور حالة الجرح في رجلي لقياس مرور الوقت: كنت هناك منذ عدة أشهر. في الليلة الخامسة، أظنّ أنّه تحسَّن حالي، واستطعتُ أن أمشي مترنحاً حتى بلغتُ حافة الفسحة في الغابة، فلاحظتُ نشاط الهنود وتحركاتهم. حسب تقديراتي، التي أكدتها الاستعدادات المنجزة، كان الأمر يتعلق بعشية طقس من الطقوس في جزيرة الضباب. لم يكن هناك أي أثر للهندية. لكن، في صباح اليوم التالي، عندما تسللت خلسةً إلى مالوكاتي كعادتها، كانت تتحرّكُ منحنيةً وهي تحمل آنية القرع مع الأكل في يديها، أمسكتُها بقوة. وهذا هو السبب الثالث لتسجيل هذا الفيديو يا صديقي، الذي ربما يكون هو الرئيسي، سببه الوحيد والحقيقي، قال بووافينْتورا، وهذا هو اعترافي بما اقترفتُه من جرائم ضد الإنسانية. قلتُ لك إنني قد تلقيتُ تهديدات مؤخراً، رغم أنني كنتُ دائماً أعاني من التهديدات. في الحقيقة، كانت تأتي دائماً من جهات بديهية، من قوى معادية لعملي مع

الهنود، من شخصيات نافذة في الزراعة التجارية، من شركات استغلال الخشب وشركات المعادن، بل وحتى من الحكومة. وفوق ذلك، همهم، بدأتُ أرى أشباحاً. على الشاشة، لم يكن ممكناً رؤية سوى عينيْ بووافينْتورا اللامعتيْن من كثب. بسبب تشوُّه عابر في تسجيل الصورة، اقتربت عيناهُ كثيراً من الكاميرا حتى صار من الممكن معاينة نجمتيْن صغيرتيْن مشتعلتيْن في قُزحيّتيْهما، نجمتيْن مشتعلتيْن تمحوان الصفاء الأزرق لعينيه، علامتيْن قزحيّتيْن لمرض لم يُشخّص بعدُ. لكنَّ التهديدات كانت تأتي هذه المرة من جهات مجهولة، تابعَ، ولذلك كانت أكثر خطورة. كانت تأتي من الفوضويين المدافعين عن السكان الأصليين، أعتقد، الذين يسمون أنفسهم «هنود الحواضر الكبرى»، مثل أولئك الفوضويين من مدينة بولونيا الإيطالية سنة ١٩٧٧ الذين أعجبتُ بهم. إنهم راديكاليون متطرفون. يمكن أن أموت في أي لحظة، من هنا جاءت الحاجة إلى هذا الفيديو، قال بووافينْتورا. من المحتمل أن أكون ميتاً عندما تشاهد أنت هذا الفيديو، لذلك فهذا ما وقع: في ذلك الصباح أمسكتُ الهندية من عنقها بربطة حتى أغمي عليها. عندما سقطت فاقدةً الوعي، حملتُها فوق كتفي ومشيتُ عبر المنطقة الأكثر كثافة في الغابة باتجاه النهر. عندما اقتربنا من الضفة، خلّصتُ المركب من أوراق الأشجار التي كانت تغطيه، وألقيتُ على متنه الهندية المغمى عليها. وبنفس أوراق النخيل اليابسة، ابتكرتُ ما يشبه جدولاً فوق الأعشاب سمح لي بدفع المركب بخفة حتى النهر. بعد التجديف لمسافة مائتي متر دفعة واحدة،

دون أن أنظر إلى الوراء على الأقل، شغّلتُ المحرك. لكن التشغيل لم ينجح في المرة الأولى، ولم ينجح في الثانية ولا في الثالثة، وكان من الضروري الإلحاح في المحاولة بسحب حبل المحرك. فكرتُ: ماذا لو أنَّ المتوحشين، الغارقين لحظتها في أحلام التِّنْسانهان الأزلية، قد استيقظوا بسبب هدير المحرك؟ راهنتُ على أنهم لن يستيقظوا، حتى إنّي خشيت أن أخنق المحرك، لأنه لم يكن أمامي من حلّ آخر، إلى أن انفجر المحرك بصوت مسترسل يعدُ بالأمل. وجهتُ المركب نحو التيار بأقصى سرعة، وحتى بعد أن أصبحنا على مسافة بعيدة نسبياً وتقلصتْ فرص اللحاق بنا، كانت جروح وجهي تنبض من الألم. لم يكن ألم الوجه ناتجاً عن الريح التي تشوّهه بشكل أكبر، بل عن الفزع من أن يلحق بنا مَن اختطفوني. بعد عدة كيلومترات، تلاشى الضباب من فوق نهر بوروس، وانبعث الضوء، ينير الهندية الشابة الممدّدة جامدةً في عمق المركب، يغطيها الدم بالكامل. لحْظَتها فقط انتبهتُ إلى أنَّ صدري أيضاً كان ملطخاً بالدم. في عجلة الهروب، لم ألاحظ البطن المبتدئ الذي كان يتشكل في العانة الممتلئة للهندية. فعلاوة على أنني وضعتُ حداً لحملها، كانت الآن تعاني من نزيف، ومازالت أمامنا ثمانية أيام من السفر حتى لابْريا، إن لم تحدث أشياء غير متوقعة. في حالة ما إذا توفيتُ، قد تذهب كل خطتي سدى. لن أكتشف أي شيء عن المتوحشين. نظّفتُها بكل ما تسمح به الظروف من عناية. ظلت الهندية مغمى عليها طوال ذلك اليوم، وازدادت حُمّى جسدها في الصباح التالي. وأنا أحرّرُها من بقايا

الحمل، ملقيا القشرة الدامية في تيار النهر، لم يسعني سوى أن أفكر فيها بوصفها مادة تنطوي على مستقبل لن يأتي أبداً. حينئذٍ خطرت على بالي فكرة، شيء يمكن أن يمنح الأحداث اتّزاناً في المستقبل، ويجعل نجاتها أمراً عملياً. كانت خطة، يمكن أن تنجح أو لا تنجح كأي خطة أخرى. لحسن الحظ، تحمّلت الهنديّةُ أربعة أيام أخرى من السفر، حتى بلغنا مستودعاً متقدماً تابعاً لشركة استغلال الأخشاب، حيث تلقت علاجاً بالمضادات الحيوية. طبعاً، لم يكن ممكناً حينها معرفةُ إن كانت ستعيش بعد تناول الأدوية أم بعد اتصالها الأولي مع مجتمعنا، وسط ذلك المستوصف غير الصحي. حكيتُ للحطّابين أنني تعرضتُ للخطف على يد المتوحشين من قبيلة معزولة، وأنّ الدليل الطوقاني قُتل، وأنَّ الهندية الصغيرة قد أمّنت مروري إلى الحرية. وعلى الفور، أرادوا أن يقتلوها، لأنهم يخشون أن يأتي شعبُها بحثاً عنها. لم يكن يهمهم تبذير الأدوية، لكنهم يفضلون البقاء على قيد الحياة. واحد منهم، أكثرهم اندفاعاً، كان يحمل فأساً في يده، قال إنّهم سيقتلونها ويلقون بها في النهر. سيحملها التيار بعيداً، قال، لن يعلم الهنود بأيّ شيء، ولا حتى المبشرون. كما أنّ أقرب وكالة تابعة «للمؤسسة الوطنية لشؤون الهنود» كانت مغلقة. استطعتُ إقناعهم بعكس ذلك. ربما تكون الجروح في وجهي الجائع قد أصابتهم بالخوف، أو ربما اقتنعوا بما عرضتُ عليهم من مال سيدفعه «المجلس التبشيري للسكان الأصليين». هذا ما حدث. أنا وكيل تابع «للمجلس التبشيري للسكان الأصليين»، أذكُر الآن أنني

قلتُ لهم ذلك: سيكافئكم المجلس جميعاً لأنكم أنقذتم هذه المرأة الشابة. وهكذا أنقذْتُها من موتها الأول، لأننا انطلقنا من جديد باتجاه لابْريا في صباح اليوم التالي، تحت عاصفة قوية. وبينما ظلّت الهنديّةُ مغمى عليها فوق ألواح خلفية المركب، مددتُ القماش فوق رأسيْنا وشغّلتُ المحرك. خلال ما تبقى من وقت الرحلة، توقف النزيف، خفّت الحُمّى وعادت الشابة إلى وعيها. حين استيقظت، نظرت إليّ تلك العينان المنحوتتان بسكين كما لو أنهما لم ترياني قطّ، وربما لم تفعلا، كاشفتين عن غضب هادئ لسجينة غير مستسلمة. كان حقداً قوياً للغاية حتى إنّ العينين كانتا تلمعان تحت عتمة القماش. تابعنا على تلك الحال مدة يومين، كل منا مقرفص في عالمه عند طرف من المركب، يواجه الآخر ونحن لم نفهم بعد مصيرنا المشترك، إلى أن انتبهتُ إلى أنها كانت تنظر من خلالي، بعيداً جداً من هناك، إلى منبع النهر، من حيث أقلعتُ. عندما نزلنا في لابْريا، لم نتعرض لمضايقات حثالة الناس المعتادين في الرصيف، ومشيتُ مع ما تبقّى من أحمال سحبتُها من المركب نحو نُزل بعيد عند تخوم مجموعة من أكواخ القرية. تفاوضتُ مع صاحبته، مومس كانت تمني النفس بالتقاعد، وهو أمر مستحيل في مهنتها وسط تلك القفار، كي نشْغلَ البيت المهجور القديم في عمق الحقل، حيث وضعتُ أدوات المطبخ القليلة التي حصلت عليها من مستودع شركة استغلال الخشب، بالإضافة إلى سكين كبيرة، مسدس وبندقية. في الأيام الأولى، اضطررتُ على مضض أن أربط الهندية بحبل. تحت الفانوس المرتعش

في البيت المهجور، جالساً على كرسي قبالتها، استطعتُ أخيراً أن أتفحّص جسدَها. لا بدّ أنها لا تتجاوز العشرين سنة. كانت قصيرة القامة حتى وفق معايير السكان الأصليين، بطول أقصاه مترٌ ونصف المتر. عندما تأكّدتُ من أنها شابة إلى ذلك الحد، رأيتُ في الأمر تهديداً قوياً لخطتي: خشيتُ ألاّ تُعلّمني لغتها أو ألاّ أطّلع على نظرية نشأة الكون عند شعبها. كما هو الحال عند شعوب أخرى، قد تكون بعض المعارف مُحرّمةً على النساء في ثقافتها. وحسب ما لاحظتُ أيضاً، كانت هي المرأة الوحيدة في المجموعة، من دون مربيات قد تكون تعلمت على أيديهن. كنتُ قد أصبتُ الهدفَ من طلقة في الفراغ، قال بووافينْتورا، وبعد أن نطق بذلك تحولت ندوبه إلى تقطعات في الصورة. استمرَّ يحرك فمه بتثاقل لمدة ثلاثين ثانية بدت كأنها آلاف السنين، في صمت انتهى بتشويش واختفاء قصير للصورة من الشاشة.

عندما استقرت الصورة، أرجعتُ الفيديو حتى لحظة بداية العطب، لكنّ المقطع كان متضرراً بكامله. وبما أنّ العطب يبدو أنه يعود إلى لحظة التسجيل وليس إلى حاسوبي، لم يتبق لي سوى أن أتابع بثلاث ضربات خفيفة على الطاولة، أمنّي النفس ألا تحدث مشكلة أخرى مع الفيديو. ظلت الهندية أسابيع كاملة دون أن تتكلم، قال بووافينْتورا، وبالكاد أكلت طعاماً خلال ذلك الوقت. خاطرتُ بالحديث بالداهسيّة وبلهجات أخرى طوقانية أعرفُها دون جدوى. من أرجوحتي الشبكية أو من الكرسي،

كنتُ أراقب هيئتها وهي مثل أبي الهول، فكنتُ كأنني غير مرئي، لم تكن ترد حتى على نظراتي. فقط كانت توجد الهندية في ذلك البيت المهجور الضيق المتكون من غرفة واحدة ونافذة، بينما كانت حياتي معلقة. في البداية، اتفقتُ مع صاحبة النُّزل بأن تزودنا بالأكل. لكن، بعد مرور بعض الوقت وأنا سجين مع الهندية اضطررتُ أن أتنفس قليلاً، وأخرج لأشتري سجائر وأشرب في الحانة السابحة فوق النهر. خلفَ منضدة حانة «منعطف النهر الوسخ»، كنتُ أرقب محتلّي الأراضي مع هنديّاتهم السكرانات، لا بدَّ أنَّ كل رجل في لابْريا كان يملك واحدة يربطها إلى رجل السرير. ومع ذلك، لم تكن علاقتي مع الهندية تتجاوز المعرفة، وكانت اهتماماتي الأنثروبولوجية فوق الشرط الحيواني. عازماً على الحصول على ما كنتُ أرغب فيه، عدتُ ذات ليلة إلى البيت المهجور لأجده فارغاً. شبه سكران، لعنتُ صاحبة النُّزل وحشمتها كمومس اعتنقت مؤخراً الديانة الكاثوليكية، فانطلقت حتى بلغت خلفية البيت، فوجدت الهندية في الطريق، مقرفصة تحت ظلّ جذع شجرة سيبيبيرونا في الحديقة. كانت صاحبة النّزل قد فكت وثاقها، بيد أنها فضلت البقاء، ربما لأنها لا تعرف إلى أين تهرب. ولأول مرة نظرتْ إليّ بوجهها العازم والشمسي. بالصبر والطعام أقنعتُها بالعودة إلى داخل البيت المهجور، ولم أسجنها مرة أخرى. من دون الحبل اكتسبت شجاعةً أكثر هدوءاً، وبدأت تلاحظُ الأشياء والبناية حيث كانت. خلافاً لرجال شعبها، كان لها شعر طويل بتسريحة مستقيمة، يُؤطّرُ وجهاً بحاجبيْن مكشوطين. به

وشوم على شكل خطوط دائرية تمثل أشعة الشمس، انطلاقاً من العينيْن والأنف، ما يمنحها مظهر نمر أمريكي. اغتنمتُ تلك الهدنة وقررتُ أن أجرب التِّنْسانهان الذي جلبتُه من جزيرة الضباب وأُثير في نفسها ردة فعل، ربما لأبعث فيها تلك العناية التي أحاطتني بها عندما كنا في الأدغال. ذات صباح مشمس، ناديتُ عليها حتى بلغت شجرة السيبيبيرونا فاستنشقتُ ما كان في «الباكي» بكل قوة. وكما في المناسبات السابقة، سقطتُ على الفور. تابعت الهنديةُ سقْطتي بعيني مركزتين على الأرضية، دون أن تنظر إليّ مباشرة. ظهرت أمي داخل البيت المهجور وشبكت يديها عند النافذة، ثم أطلقت من لسانها بين الأسنان طقطقات كانت دائماً تقوم بها كُلّما وبّختني على شيء قمتُ به، تْسَكْ تْسَكْ تْسَكْ، نطقت بشفتيها المغضّنتيْن. سلّمتُ أنني كنتُ أكرهها. حينئذ بدأ جلد والدتي ينفكُّ عن لحمها، وذابَ ليصير جلداً ناعماً، ومن فمها انفلتَ خنفساءٌ ضخم مثل خنافس الجزيرة، حام في الهواء فوق الشجرة بينما كان جسد أمي يذبل ويختفي. بدأتُ أسمع كلمات غامضة في البداية، لكني سرعان ما فهمتها. «**الشّرُّ العظيم**»، كانوا يقولون بلغة الييبّاماهْسا، وأدركتُ أن الهندية هي من كانت تهمس بها، «**الشّرُّ العظيم**»، كانت تحدثني وأنا أفهمها فهماً كاملاً. عندما عدتُ إلى وعيي، كانت جاثية على ركبتيْها إلى جانبي تمسكُ بيدي. في الساعات الموالية، اشتدت الثمالةُ، وعادت الهنديةُ لتعتني بي. وأخيراً، أتت خطتي أكلها. طرحتُ عليها أسئلة بلغة الييبّاماهْسا فحصلتُ على أجوبة قصيرة غير مسموعة تقريباً.

فكرتُ أنني يمكن أن أعدّها الآن صديقة. من بين الخيوط الضيقة في وجهها التي ينفلت عبرها ضوء عينيها، تعرفتُ شيئاً ما: القبول. كانت تتلعثم بلغة الييبّاماهْسا بإيقاع طفولي، فاستنتجتُ أنها لم تكن لغتها الأم. لقد فضلت أن تتعلم لغة أخرى، كانت تعرف بعض مبادئها بطبيعة الحال، بدل أن تُيسّر ولوجي إلى لغة شعبِها. لن أقدم شيئاً دون صراع، قال بووافينْتورا، تلك كانت هي رسالتها، لكنّي كنتُ عازماً على هزيمة أي مقاومة، لأنَّ المعرفة الإنسانية كانت في خطر. في الأسابيع التالية، تابعت الهنديةُ لعبة غوايتها، تارة تجود بفتات من اهتمامها، وتارة تنغلق على نفسها مثل حيوان مُدرّع. شيئاً فشيئاً، بدأتُ أفهم القواعد السرية لذلك التعايش، فاقتربنا أكثر من بعضنا. كنتُ مهتماً أيّما اهتمام بأن أتعلم شيئاً من لغتها، أي شيء، حتى أعرف العناصر الأساسية لنشأة الكون عند شعبها، الذي لم أكن أعرف حتى اسمه بعد. بعد ذلك، كنتُ أريد أن أفهم المعاني المرتبطة بطقس التِّنْسانهان. بدأتُ أشتغل مستحضراً هذا الأمر. كان الطعام هو المدخل لتعلُّم أسماء المأكولات وطُرق تحضيرها. كنتُ بذلك أسعى إلى أن أجعل الهندية تتأثر لاهتمامي. ولسعادتي، حصلتُ على جزاء حسن نيتي ذات مساء، حين كانت تحضّرُ عصيدة المنهويت. وفي غفلة مني، همهمت الهنديّةُ بكلمة «كاجابُّوكوجي». منذ تلك اللحظة، بدأتُ أشجعها لأفهم معناها، فاستجابت لطلبي وقالت إنَّ الأمر يتعلق باسم شعبها في لغة الييبّاماهْسا، لأنهم كانوا يسمّون كذلك تلك الشعوب المعزولة في أعالي

نهر بوروس، وسرعان ما كشفت عن علاقتهم باليغْور الكبير والعظاءة من دون ذيل، قال بووافينْتورا، أصل الكاجابُّوكوجي الحاليين. مع مرور الأيام، صار تعايشُنا أكثر حميمية. تخلت عن كونها سجينة، وشغلت البيت المهجور كما لو كان منزلها. تأثرتُ لموقفها، وكنتُ أتأمل أشغالها اليومية، وأفكّرُ أنها قد تكون أُمّاً رائعة. يمكن أن تنجح خطتي النهائية. انعزلنا هناك، في البيت المهجور خلف النُّزل، وباستثناء الزيارات القليلة لصاحبة النزل التي كانت تجلب لنا طعاماً نحضّره في الحديقة، اختفت لابْريا من واقعنا. تعلمتُ تحضير الطعام وفق تعاليم أهلها، وكنا نقتاتُ على ذلك. حينئذ لم أفكر أنها كانت تتصرف بلطف كي تحمي نفسها مني، من حضوري الغامض بالنسبة لها. لذلك تخلت عن الصمت كاستراتيجية للرفض، وحكت كيف كان الكاجابُّوكوجي يرون نشأتهم في الكون. في بداية كل شيء، حدث انفجار عظيم في دييِّوايْ، السماء الأولى، وديريوايْ، السماء الثانية التي نعيش فيها الآن، وسمح ذلك الاصطدام لشيكوفيشيغوياوان، الرُّبان التائه، أن يأتي من ديسانْوي، السماء الثالثة، داخل التِّنْسانهان، قالت، الخنفس العظيم، الذي خرجت منه سحابة سوداء من خمسين خنفساً صغيراً، الربابنة، الذين تبرّزوا في شينْجيشْيوماندواْ، جزيرة النوم المقدس. بعد أن أكل براز الخمسين خنفساء، تبرّز الرُّبان التائه بدوره، ومن بطنه خرج أسلاف الكاجابُّوكوجي، قالت، ومنهم ننحدر نحن، الكاجابُّوكوجي الموجودون في شيجْيي. حين نستنشقُ أحشاء التِّنْسانهان، نزور مؤقتاً السماء الثالثة،

حيث يعيش أسلافنا في حُبّ أزلي قرب الرُّبان الثالث، قالت، وهذا اللقاء هو الذي يُعلّمُنا الاستمرار على قيد الحياة. لكن أحياناً، عندما يكونون في أوج قوتهم، يقتل الكاجابُّوكوجي أنفسهم، قالت، لأنهم يرغبون بذلك في أن يستمروا في السماء الثالثة شباناً وشجعاناً، وليس شيوخاً عاجزين. وهي تكشفُ لي عن المذهب السري للكاجابُّوكوجي، كانت الهندية تتحدث بهمسات مشؤومة، كم لو أنها تعلن عن سر فظيع، قال بووافينْتورا، وتتمدّدُ فوق حصير أرضية البيت المهجور، متأثرة بمرض جاءت تحتضنه في عروقها، وستتكرر **النشأة** إلى الأبد، قالت، لأن الأشياء التي تشكل الكون لها حد، وحتى يتم بلوغ هذا العدد، فإن شيجْبي، الكون، عليه أن يكرر نفسه. ومرة أخرى سوف يتيه الرُّبان، ومرة أخرى سيتبرّزُ الخنفس العظيم سحابة من خمسين خنفساً، هييّين، ومن جديد سوف يتبرّزُنا الرُّبان التائه، ليجلبنا حتى هذا المكان، وسوف تصعدُ أنت عبر مجرى النهر حتى تبلغ كاجابُّوكوجي مرة، ومرة ثانية، ومرة أخرى، قالت، وستظل إلى الأبد سجين مجرى ذلك النهر من الخراب والانبعاث، هين زاوْغاو، «**الشر العظيم**»، قالت، وهي في الوقت ذاته تلعنني وتذكر اسمي لأول مرة، قال بووافينْتورا.

امتدّ ظلُّ غيمة تحجبُ السماء فغطى بكَفنه شاشة الحاسوب، وبووافينْتورا في نفس الوقت. استمرَّ ذلك ثوان قليلة، اجترّت خلالها ملامحُ وجهه المدمّر الذّكرَ غير المرغوب فيه لما سيأتي بعد ذلك. ولم يستمر ذلك أكثر من

زمن امتداد الظّل. مرت الغيمة، وعاد النور إلى الغرفة، فاخترق بصيص من الشمس قنّينةَ شراب المسكال فوق المائدة، ليعطي توهُّماً بأنَّ الدودة بداخله كانت تتحرك، عائدة إلى الحياة. في الهاتف الخلوي كانت هناك مكالمة لم أجب عليها، من مُفوّض الشرطة. كان ينتظر دليلاً سرياً حول الجثة التي تحمل رقم ٥٠، وكنتُ أملَهُ الوحيد في تلقي مستجدات حديثة من عالم الأموات. شربتُ المسكال قبل أن يدق هيرنانْديث وفيرنانْديث الجرس مرة أخرى، وتابعتُ مشاهدة الفيديو. بعد أن سمعتُ الاسم الذي كانت تناديني به، علمتُ أنَّ حياتي كانت فاشلة، قال بووافينْتورا، لكني لم أشك أنني كنتُ ما أزال على مشارف الأسوأ. سيتحقق سقوطي النهائي تلك الليلة بالضبط، عندما نمتُ على الكاجابُّوكوجية فوق أرضية البيت المهجور مباشرة. لم تطلق أي أنين يُذكر، بينما كنتُ أفرغ كل الرغبة المكبوحة منذ رأيتُها لأول مرة، ثم بعد اختطافي، وبالكاد نظرت هي إلى الهلال المتناقص عبر النافذة المطلة على الحديقة ليختفي في غيمة سوداء. لكن فشلي في التزامي بالمبادئ الأولية للمعرفة وبأخلاقيات علم الأنثروبولوجيا، أو ما يسمى استقامة الرجل الأخلاقية، أو أي اسم يطلقونه على اللياقة، بلغ الحضيض في الأسابيع التالية، قال بووافينْتورا، ومارستُ خلالها أكثر أفعال المجون إثارة للاشمئزاز. صرتُ حيواناً لاهثاً فوق جسد تلك الهندية، ألتهمُها عدة مرات في اليوم، وكنتُ أوقظها في الليل لأضاجعها مرة أخرى، ومن جديد في الصباح. وفي كل المناسبات التي حدث فيها ذلك، لم تُبْدِ أيّ ردة فعل. كانت

تبدو مستسلمة، كما لو أن ذلك حدث لها من قبل عدة مرات، مئات، آلاف المرات، وسيتكرر إلى الأبد في دورة لا تنتهي، في ذهاب وإياب أزليّيْن. كان صمتُها يهينني، وامتناعها عن الكلام معي يشهد على عدم وجودي. لم يتأخر كثيراً الأمر البديهي في الحدوث، وهو ما اكتشفتُه عندما فاجأتُها تتقيأ فوق الأعشاب الضارة التي تنمو عند قدم شجرة السيبيبيرونا. بعد ستة أسابيع، انتفخ بطنُها ونبّهتني لذلك صاحبة النُّزل التي اعتادت على تقلبات رحمها الخاص بوصفها مومساً. حينئذ بدأتُ أخرج ليلاً حتى أصل إلى «منعطف النهر الوسخ»، الحانة العائمة على ضفة نهر بوروس. هناك كانت الكوكايين متوفرة بكثرة، يجلبونها من كولومبيا، فملأ لعبُ الورق والرذيلة فراغ وجودي. ما إن تغيب الشمسُ في الأدغال حتى أربط الهندية إلى قائمة المائدة وأهرول نحو الحانة، التي أقضي فيها الليالي. بعد ثلاثة أشهر، كنتُ غارقاً في الديون، أدينُ بمبالغ هامّة لصاحب طاولة الرهانات، وإلى أعنف تاجر مخدرات في لابْريا. ذات صباح من تأثير صداع الخمر، قال بووافينْتورا، استيقظتُ لألمح وجهيْن يظهران في ضوء الشمس عند الباب المفتوح، واستغرقتُ وقتاً طويلاً في التعرف عليهما: جورج وسيلفيا ماريا فولير، صديقاي المدافعان عن السكان الأصليين والمناضلان من أجل قضية شعب اليانومامي. دون التظاهر بالدهشة وهما يريان الحبل حول كاحل الهندية المرمية جانباً، دخلا معاً إلى البيت المهجور وجلسا إلى المائدة. كعادتها، استمرت الكاجابُوكوجية متحصنة بصمتها المنيع، بالكاد

انتبهت إلى وصولهما، وظلت تولي وجهها إلى الجدار. فركتُ عينيّ وقاطعت سيلفيا بدايةَ ابتسامةٍ على شفتيَّ. كانت بريطانية صارمة على الدوام، ثم أشارت إليّ بإصبعها وبالكاد قالت: سكين، أريد سكيناً لأفك وثاق هذه الشابة من هذا الحبل. وأريده الآن، قالت، لأن أسيرتكَ ستذهبُ معنا. في أثناء ذلك، قال جورج في حديثه إنّهما قد علما عن طريق المبشرين في «المجلس التبشيري للسكان الأصليين» الشائعة التي كانت تروج في لابْريا حول باحث يحتفظ بهندية في الأسر، ولم يصدقا أنَّ الأمر كان يتعلق بي أنا، وتمنيا لو أنّ الشائعة لم يكن لها أي أساس. عادة، كان جورج شخصاً هادئاً، لكنه في تلك المناسبة كان متوتراً للغاية. حاولتْ سيلفيا أن تثير انتباه الهندية بحركة مهدئة، وانحنت بالقرب منها. ووجهُ الهندية بين يديها، نظرتْ عميقاً في عينيها اللتين تشبهان عينيْ نمرٍ وقالت: رائع، لم يسبق لي أن رأيتُ شيئاً مماثلاً، سوف نعيدها إلى شعبها، سلِّمْني السكين حالاً. ومدّت راحة يدها المبسوطة نحوي. كان ردُّ فعلي أمام طلبهما أمراً مخجلاً، قال بووافينْتورا، لأنني وقتها لم أكن أتحكم في نفسي. أخرجتُ مسدساً من عيار ٣٨ ملميتراً كنتُ أحتفظ به قرب شبكة النوم ووجّهته صوبهما، آمرهما أن يغادرا بأسرع ما يمكن، لأنهما وإن كانا صديقين، فإنَّ ذلك لا يمنع من استقرار الرعب في ذلك البيت البائس، في حالة ما أصرّا على أخذ أُمّ ابني. وخرجا معاً، يبتعدان عبر الحديقة تحت فوهة مسدسي، بينما كان جورج يقول أشياء من قبيل إن الأمر لن يقف عند هذا الحد، سوف ترى، سنعود إلى

هنا برفقة رجال الشرطة. لكنهما لم يعودا، على الأقل خلال مدة إقامتي في النُّزل. بائسةً وبطيئةً، هكذا تمططت الشهور التي سبقت ولادة الطفل، بائسة، بطيئة ومخزية. خرجت الديونُ عن السيطرة، لم أتمكن من التوقف عن شمّ المخدرات والهندية تغرق في أشد أشكال الصمت مقاومة، تتصرف بكل جَلَد حتى أثناء الوضع. وُلدَ الطفلُ ذات يوم ماطر وغائم جداً حتى إنني بالكاد استطعتُ أن أميز إن كان قد جاء مكتملاً إلى الدنيا أم كانت تنقصه قطعة من جسده، إن كان قد جاء من دون إبهام القدم مثل والده. جاء بسهولة كبيرة حتى بدا أنَّ الهندية لم تبذل أي مجهود. كأنه نبع انسابَ من ذاتها. في اليوم التالي، بذريعة زيارة المولود الجديد، جاء صاحب قاعة ألعاب القمار وتاجر المخدرات إلى البيت المهجور. خائفةً من ديونها السابقة، من يدري، فتحتْ لهما المومسُ السابقة الباب. انبهرا معاً بالهندية وتوصلنا إلى اتفاق: سأقدّمها لهما بعد فترة نقاهة ما بعد الوضع، وهما سيخصمان ديوني شيئاً فشيئاً. وكذلك كان: كل ليلة كان الطفل يبقى في رعاية صاحبة النّزل، بينما آخذُ أنا الهندية حتى «منعطف النهر الوسخ»، وهناك أعرضها لممارسة البغاء. كانت تُكرّر خطواتها عبر شارع الرصيف الموحل، وتتحمل كل الإهانات كما لو كانت تعرفها مسبقاً. كان زبائن الحانة العائمة أشخاصاً معتوهين، جزيرة من البراز فوق الوحل، تعج بحثالة القوم من كل حدب وصوب. وهي ما تزال في حالة هشّة بسبب الوضع، ربما نتيجة الإجهاض الذي تعرضت له في المركب الذي هربتُ على متنه من الكاجابُّوكوجي، لم تتأخر أن ظهرت

عليها أعراض مرض خطير. ومن المرجح جداً أن أكون أنا من نقلتُ إليها عدوى الحصبة، قال بووافينْتورا، أو ربما كان ذلك نتيجة الأمراض التناسلية المنتشرة في الأدغال وسط رُوّاد «منعطف النهر الوسخ»، وأثراً جانبياً لتسديد ديوني. بعد وقت طويل لم تنتبه خلاله إلى حضوري، ولم تنظر إلى وجهي، أظنُّ منذ تلك الليلة التي نمتُ فيها معها، حدّقت إليّ بعينيْها لحظة موتها ونطقت ببعض الكلمات، لتوقظني من نومي الكحولي. كانت تحمل الطفل في حضنها وتغطيه بملاءة، ورأسها مسند إلى الجدار في زاوية غير مريحة، عندما فتحت فاها وهمست: بالنسبة لنا، أنتم أكثر حياة بعد موتكم مما تكونون عليه أثناء حياتكم، قالت ثم انهارت، صامتةً كما في كل اللحظات التي قضتها إلى جانبي. سال دمٌ من تحت الملاءة التي كانت تغطي الجزء السفلي من جسدها، وعندما سحبتُها مع الطفل، كانت قد صارت بركة فوق الأرضية. رأيتُ السكين مرمياً، وجرحاً عميقاً عند مستوى الأُرْبيّة. حينئذ فقط انتبهتُ إلى أنها لم تقل قط اسمها، ومن جهتي لم أكلف نفسي قطُّ عناء وضع اسم لها. هذه هي، قال بووافينْتورا، وهو يمدُّ أمام الكاميرا صورة بألوان باهتة بفعل الزمن، إنها الصورة الوحيدة التي أخذتُها لها مع الطفل في لابْريا، عند قدم شجرة السيبيبيرونا في الحديقة. في الصورة، كانت الكاجاتُّوكوجية تنظرُ بطرف العين إلى عدسة آلة التصوير، بارتياب واضح. كان وجهها طويلاً وموشوماً بخطوط تحاكي أشعة الشمس، بملامح بدت لي مألوفة، رغم أنني كنتُ دائماً أنزعُ إلى اعتبار الآسيويين يتشابهون فيما

بينهم. رغم الوهن، كان جمالها شيئاً غير عادي. الآن فقط أدركُ أن تلك الخطوط في وجهها ربما كانت أرقام ساعة، وليست أشعة الشمس، ومن يدري؟ بل ربما تكون الساعة التي يشكلها الكاجابُّوكوجي وهم يقيمون طقس التِّنْسانهان، قال بووافينْتورا. استمرت عقارب تلك الساعة الشمسية غير المرئية تدور، وأنا الآن أرى أشباحاً. إنني أرى الهندية الآن في كل مكان.

التقطتُ صورة للشاشة حتى أستطيع تحليل الصورة بهدوء أكبر لاحقاً وتابعتُ مشاهدة الفيديو، الذي كان يلامس النهاية. كنتُ أعرف سلفاً الجواب الذي سأقدمه لمُفوّض الشرطة، لكني فضّلتُ تأجيل ذلك حتى يأتي هيرنانْديث وفيرنانْديث، اللذان لا مفر منهما، ويسوقا شاربيهما إلى غاية بابي. بعد موت الهندية، تذكرتُ حادثاً وقع في الأدغال، عندما اختطفني الكاجابُّوكوجي، قال بووافينْتورا، شيئاً ربطتُه بما قالتهُ لي قُبيْل موتها. كنتُ على وشك أن يغمى عليّ من الجوع، لكني في النهاية نجحتُ في قنص قرد، وكنتُ أشويه على نار أشعلتُها أمام البيت المهجور عندما برز من الفراغ رجل من الكاجابُّوكوجي. عندما شمَّ الرائحة المُرّة للحم القرد المشوي، توجَّه نحوي. لم ينبس بأدنى بنت شفة، بالكاد واجهني بعينين لا تعبران عن غضب ولا عن خوف. على العكس من ذلك، بدا لي تعبيره ينم عن حزن، وعن شفقة عميقة تجاهي. كانت تلك هي المرة الوحيدة التي نظر فيها رجلٌ من الكاجابُّوكوجي إلى عينيّ

خلال مدة أسري في أعالي نهر بوروس، قال بووافينْتورا، لكن فقط بعد وفاة الهندية فهمتُ أنهم كانوا يتجاهلون حضوري بازدراء كبير ليس لأنني شبح، كما كنتُ أظنُّ وقتها، بل لأنني لم أكن أدري إن كنت حياً أم ميتاً، بل لأنهم لم يكونوا يروني لأنَّ جسدي هذا كان خالياً من أي روح، لأنني كنتُ هيكلاً فارغاً يتسكع في الأدغال دون الحصول على تدخل من الموت الرحيم. كان الكاجابُّوكوجي يتظاهرون بعدم رؤيتي لأنَّ روحي كانت ميتة، لكن جسدي لم يكن كذلك، قال بووافينْتورا، وتلك كانت أقسى لعنة من اللعنات. كنتُ هينْزاوْغاوْ، **الشر العظيم**.

في الأسبوع الذي تلا موت الهندية، جمعتُ كومة الأوراق النقدية التي كانت تتناقص أكثر فأكثر واقتنيتُ قارباً قديماً ما يزال يطفو فوق الماء، لكن ليس لوقت طويل، تابع بووافينْتورا. وضعتُ على متنه بعض الأدوات، في حالة ما احتجتها وسيلةً للمقايضة، ثم ركبتُ برفقة الطفل دون أن أخبر أحداً بوجهتنا. قبل أن أغادر كنتُ مضطراً أن أسمع كلام الشكاوى البذيئة من صاحبة النُّزل. كانت مُتعلّقة بالطفل، وأثارت ضجّة كي تحتفظ به، واعدة بأنها ستعامله أحسن من معاملة حفيدها الشرعي. وبدل أن أترك الطفل مع المومس، أدّيتُ ما تأخرّ من مساومة الكراء مقابل البندقية والمسدس. في الرصيف، وأنا أرفع مرسى المركب، عاقبتني من بُعْد نظرات الشجب من الزبناء المنحنين على حافة الحانة العائمة. بل حتى صاحب قاعة ألعاب القمار وتاجر المخدرات لا بد أنّهما كانا يريان أنَّ ذهابي

يعني ضياع أفظع شخص وطئتْ قدماه حانة «منعطف النهر الوسخ». كانوا جميعاً يتحسرون علي، لكنهم بدؤوا يعتبروننني حالة لا حلّ لها بكل تأكيد، وهم يروننني أوجه دفّة المحرك نحو أعالي النهر. في موسم الفيضانات، من دون معرفة دليل من السكان الأصليين وفقط برفقة طفل في حضني، صُنّفنا على الفور طعاماً لأسماك البيراروكو. ربما كانوا يظنون أنني أهرب فقط لأُغرق الطفل دون شهود، فرضية ظلت تلازم ذهني بعد يومين على بداية الرحلة. في ذلك الوقت، مخبأً تحت القماش والماء يفيض من كل شقوق المركب المرقوعة، الطفل مشدود إلى صدري بواسطة حمّالة ارتجلتُها انطلاقاً من كم قميص ممزق، خائفاً من المنحدرات والصخور المغمورة التي يمكن أن تثقب الهيكل، رأيتُ أن خلاصي الوحيد هو أن أرتمي في الماء. لكنني لم أفعل ذلك، فقط أطعمتُ ذلك الطفل كما استطعتُ، بحليب الماعز الذي حصلتُ عليه من ساكنة الضفاف وبجذور المانيوك المطبوخة، تحملتُ بكاءه المستمر في الليالي وهو يفوح بالعفن، أهدهده على صدري عندما يهدأ المطر، أرفعُ رأسي نحو الشمس لأتأكد إن كان النهر يتابع مجراه القديم باتجاه الجحيم. وفي النهاية استنتجتُ أنّ تلك اليقظة في حد ذاتها كانت هي الجحيم، وأنني كنتُ في الجحيم، وربما يوجد الجحيم بداخلي. كنتُ أتأمل وجه الطفل لساعات طوال فأرى فيه وجه الهندية، رغم أنَّ أصابع قدميه كانت تشبه أصابع قدميَّ، ولون بشرته هو لون بشرتي نفسه. كان شكل رأسه يشبه شكل رأس أمه فعلاً، مثل العينين اللتين تظلان دائماً

مغلقتين حتى عندما يفتحهما. وأنا مستلقٍ فوق ذلك الهيكل المتحرك فوق سطح الأرض، ابني فوق صدري والنجوم البعيدة ترقبنا انطلاقاً من الموت. في الطرف الآخر من الفضاء الذي كنا نشغلُه، كنتُ أتساءل: ما الذي قد أفعله؟ إن رأيتُه مرة أخرى في يوم من الأيام، وانتبهتُ إلى أنني تجاوزتُ حزني على فقدان والديّ، وأنني دفنتُهما عميقاً تحت ألف كومة من النسيان، وأنه ابتداء من تلك اللحظات يمكن أن أكون أنا فعلاً، جديراً بلقب «**الشر العظيم**»، لأنّ قدري كان مرسوماً. كنتُ واعياً بأنني قتلت أبي، قتلتُ أمي، وأنه، في حالة ما ظهر نبيٌّ يمشي فوق المياه الموحلة لذلك النهر، لن أتردد في قتله، بل حتى لو ظهر الرّبُّ نفسه هناك مقتفياً آثار رسوله المقتول، سأقتلُه أيضاً دون شفقة. إنَّ السهم الذي اخترقَ وجهي أطلق كل الأحداث التي تلت، قال بووافينْتورا، ولم يبق الآن سوى أن تتكرر اللحظات، سائرةً في المدار المُضجر نفسهُ لكل الأشياء السماوية حول الشمس. في النهاية، استغرقت الرحلةُ حتى أرخبيل روافد نهر بوروس عشرة أيام، ولم تكن قليلة المناسبات التي كنّا فيها قاب قوسين أو أدنى من الهلاك تحت وابل المطر وفي مجرى التيار، عُرضةً لحركات جاذبية المدّ والجزر وتقلبات القدر. خلال كل ذلك الوقت فكرتُ فيما فعلتُ وأنا أختطف أم ذلك الطفل، قال بووافينْتورا، حقيقة لم أعِها إلا بعد وقت طويل لاحقاً، عندما كانت كل الأوراق على الطاولة ولم يعُد من الممكن إلغاءُ العواقب: باختطاف آخر امرأة من شعبهم، كنتُ قد حكمتُ على الكاجابُّوكوجي

بالانقراض. كنتُ الهينْزاوْغاو، «**الشر العظيم**»، وكان ذلك الفعل الطائش هو مساهمتي في التاريخ. طبعاً، كان الأمر يتعلق بمساهمة مختلفة تماماً عمّا كنتُ أحلمُ به لنفسي، عندما اكتشفتُ في شبابي وجود شعوب أصلية معزولة من خلال برنامج على أمواج إذاعة «**راديو الساعة**». أحلامي الأنثروبولوجية، إن صحّ التعبير، التي لم أُحققها قطّ في نهاية المطاف. لكني لم أتوقع أنه كان ما يزال هناك الكثير مما سيتعرض للتدمير، وأن قدرتي على أن أُحوّلَ غباراً كلَّ ما ألمسهُ لم تبلغ بعد كل أوجها. عشية نهاية الرحلة، سقطتُ منهكاً فوق حبال المركب وحلمتُ، مفزوعاً، أنَّ سواد الغيوم الداكنة في السماء فوق المركب المتحرك ليست سوى زمن وجودي، ليلٌ طويل ابتلعَ واحدةً تلو الأخرى كل الكائنات الحية التي صادفتُها، أبي، أمي، أم ابني، وسلالة الكاجابُّوكوجي المنتهية. كنتُ منبعَ مادة صيرورة الأشياء الموجودة ومصدرَ هلاكها في الوقت ذاته. في صباح اليوم التالي، ظهرت جزيرة الضباب كأنها الشيء الصلب الوحيد في الواقع السائل للحُلم. بما أنّ الفيضانات ظلت مستمرة، أصبح العبور إلى الجزيرة بالسباحة أمراً صعباً، إن لم يكن مستحيلاً، حتى بالنسبة إلى الهنود. كانت هناك مؤشرات على أنّ المتوحشين كانوا يستعملون زوارق يبحرون على متنها، لكني كنتُ أعرف أن ذلك لم يكن نشاطاً معتاداً لديهم. كان توقّعي بأنهم لن يدركوننا يكمن في ذلك الأمر، وكان تمدُّد الجروح في وجهي يُذَكّرُني دائماً بمدى قوة سهام الكاجابُّوكوجي. وأنا ما أزال بعيداً عن الضفة، أطفأتُ

المحرك، ورحتُ أتقدم نحو الجزيرة فقط باندفاع المجادف التي كنتُ أُحرّكها بتثاقل شديد، تقودني ذكرى صورة قِطَع مُخّ الدليل الطوقاني متناثرة في خلفية المركب، تتلألأ تحت ضوء القمر. ما كان يضمنُ سلامتي هو أنَّ الطفل كان يغطُّ في نوم عميق، ولثانية واحدة خشيتُ أن يكون ميتاً. طفقتُ أُحرّكُ تلك المجادف وسط الضباب وأنا أشعُر أنني مثل قائد قارب خارون لا أحملُ ولا سنتيماً واحداً في جيبي، ملّاحاً في برزخ بين عالميْن، قال بووافينْتورا، وقد تخلّيتُ في الطريق عن أي أمل في العودة يوماً ما إلى عالم الأحياء. حسب ما لاحظتُه أثناء إقامتي عند الكاجابُّوكوجي، كانت الخنافس تتوالد في موسم الصيف، وهو ما كان يخفف قليلاً من الخطر. انتشرت موجاتُ ضباب في الهواء باتجاه المركب، تدفعها ريحٌ قادمة من البحيرة وسط الجزيرة. وفي الانفراجات التي كانت تبرز من حين إلى آخر بين الغيوم، كنتُ أرى أنَّ القمر كان ما يزال ثابتاً في السماء، رغم أنَّ الوقت كان صباحاً. لم يكن يُسمع أدنى صوت، والحيوانات ما تزال نائمة مثل الطفل، وربما كانت الطيور والطفل في مستوى اللا وعي نفسه في تلك اللحظة. كانت المجادفُ تتحرك في دوائر، والعارضة تترك آثار فقاعات خلف المركب. لمحتُ أول كومة رملية تظهر ببياضها في الشريط الذي يقع على حدود سواد المياه مع السماء الداكنة، وبعد ذلك تأكدتُ من خلال التقاء المجدف بالقعر أنَّ مجرى النهر بدأ يقترب من السطح. تهشّم المزيج الرملي من الأحجار الدقيقة والوحل تحت قدميّ الحافيتين عندما وطأتُ الشاطئ، ومن

الأغصان العالية في الأشجار كانت تخرج خيوط متشابكة تتلاشى في الهواء فوق الجزيرة، مُحدثةً طبقات ضباب كثيفة جداً حتى إنها تحدُّ من الرؤية إلى أبعد من بضعة أمتار. أقول لك هذا كي تفهمَ لماذا تُهْتُ مدة نصف ساعة على الأقل قبل أن أجد المكان الذي كان الكاجابُّوكوجي يمارسون فيه طقوسهم، قال بووافينْتورا، وعندما قامَ بهذه الملاحظة لم أجد بُداً من الشعور بالقلق وأنا أتأكد من أنّ مدة التسجيل في الشريط الأسفل من الشاشة كانت تصل إلى نهايتها: كانت سبعُ دقائق ونصف فقط هي التي تفصل الشريط عن النهاية. ومع ذلك، تسكعتُ في الجزيرة طيلة ذلك الوقت، تابع بووافينْتورا، وأثناء تلك الجولة كنتُ أبدو أنني التحقتُ بالطيور والطفل في نومهم. مشيتُ عبر أراضٍ مجهولة، تسلقتُ بصعوبة تلاًّ شديد الانحدار كان في السابق يبدو أنه لا ينتمي إلى تضاريس المكان، فبدأتُ أتساءل إن لم أكن أسأتُ التقدير وأنا أرسو في المركب، لأنَّ المنطقة كانت تضم جزراً أخرى مثل تلك الجزيرة. بعد خطوات كثيرة في حلقة مفرغة ورجوع متكرر إلى التجويف نفسه حيث تركتُ المركب، خلف صخرة حتى لا يراهُ أحد من الضفة الأخرى، توغّلتُ في الأدغال الكثيفة، وتعرّفتُ، خافتاً جداً، الطنين الذي كانت تطلقه الخنافس عندما تحطّ فوق الأشجار. كان صوتاً يكاد لا يُسمع، يشبه تلك الأغنية المنسجمة التي يهمهم بها الكاجابُّوكوجي في طقسهم، هو ما قادني حتى المكان الطبيعي حيث تتم عملية تناسُل الرّبابنة. تحت الأشجار كان من الممكن رؤية الجذوع الطويلة

التي تضيع في الضباب الحازم الذي يلف قممها. كما كان متوقعاً، كانت الحشرات ما تزال في بداية نضجها، غير صالحة لجمع التِّنْسانهان، وتشبه جراحاً سوداء تنفتح في الجذوع. لم تكن قد بلغت بعد حجم الإبهام. انتبهتُ حينها إلى أنني كنتُ على بعد بضع خطوات من المكان الذي نزلتُ فيه من المركب. ملفوفاً في الحمّالة المرتجلة، كان الجسد النائم للطفل يواكب التنفس المضطرب في صدري، وتبعتُ الطريق السالك المؤدي إلى الفسحة. لم يكن هناك من أثر للكاجابُّوكوجي، لكني تذكرتُ أول مرة رأيتهم، كانوا مُصطفّين في دائرة على شكل ساعة وسط الخلاء. حينها كانوا أكثر من مائة هندي، وليسَ هؤلاء الخمسين الذين تبقوا اليوم. كما تذكرتُ دمَ ذلك المنتحر الذي كان ينتشر ببطء، فامتصّتهُ الرمالُ، حتى ملأت عن آخرها تلك الدائرة المُشَكَّلة من الرجال المستلقين على ظهورهم. أما القبرُ، بشكله الهندسي الذي يصعب التعرّفُ عليه، فلم يكن يُذكّرُ بأى معلم أثري إنْكيّ أو أزْتيكيّ، ولا حتى بمعابد أمريكا الوسطى التي شيَّدها شعب المايا. كان من المؤسف ألاّ أستطيع تذوق التِّنْسانهان لآخر مرة، لكنَّ موسمه لم يكن قد حلّ بعد. على أيّ حال، أنا لم أسافر حتى إلى هناك من أجل هذا، ولكني فعلتُ ذلك من أجل أن أُخلّص نفسي. منذ البداية، كانت لي خطة. أن أُخلّص جسدي، متطلعاً بفارغ الصبر إلى تبنّي ابْنِنا. لكن، عندما يضع المرء خطة، يستحيل أن يعرف إن كانت ستنجح في النهاية. مشيتُ حتى بلغت المركب وسحبتُ المعول من تحت الأغراض المودعة تحت القماش.

بعد ذلك، رتّبتُ وكْراً من الأغطية في الخلف، اتّخذتُه مأوى للطفل. بعد القيام بذلك، عدتُ حتى بلغتُ القبر وسط الخلاء. كان بناية صلبة، لا تشوبها أي فجوة ما عدا بعض الشقوق بين الحجارة التي وُضعت بدقة بطريقة هندسية، وكانت مدهشة بزواياها المستقيمة وبلونها الأبيض غير المألوف في الصلصال المستعمل لطلاء تُحف الكاجابُّوكوجي. لا بُدّ أن عُلُوّ القبر لم يكن يتجاوز ستين سنتيمتراً عن الأرضية، وكان خالياً تماماً من الشجيرات أو الأعشاب البرية من حوله. كان يبدو مثل كتلة حجرية برزت فجأة من الرمال، كأنّها إهانة من الحضارة للحالة المتوحشة لتلك الجزيرة. منقوشاً في وسط الكتلة تماماً، كان للرّسم معنى ما يزال يفلتُ منّي. اتخذتُ منه نقطة مرجعية، ونزلتُ بأول ضربة معول. طمأنني الاهتزازُ الأصمُّ عن مداه المنخفض، فتصدع الطلاء عبر كل البناية تقريباً، محدثاً شقوقاً في الملاط. كان هناك منذ مئات السنين، ربما آلاف السنين، وحركة عنيفة من ذراعيّ كانت ستتلفه إلى الأبد. كررتُ ضربة المعول بقوة أكبر، محدثاً ثقباً لا يسمح لي أن أرى عبره أي شيء في الداخل. انحنيتُ لأتأكد من الثقب، فوجدت إلى جانبه شظية صلصال عليها جزء من الرسم الذي تدمّر الآن. تابعتُ العمل لمدة نصف ساعة أخرى حتى ظهرت جروح في يديّ، لأن تلك الخرسانة حُضّرت حتى يظل القبر مغلقاً على الدوام، طبعاً، قال بووافينْتورا، وتشهدُ على مدى الدقة التي اتبعها من قام ببنائه، أيّاً كانت هويتُه. بعد وقت طويل، عندما أصبحت الجهة العليا مدمّرة جزئياً، برز ثقبٌ بحجم كافٍ كي

يلج عبره شخصٌ نحيف مثلي. وقبل أن أخوض هذه المغامرة، أشعلتُ عود ثقاب ومددتُ ذراعي داخل الثقب. كان هناك غبار كثير نتيجة ضربات المعول، وقطع الملاط المتناثرة عبر السرداب المظلم. في البداية، لم أفهم ما رأيتُ، وبعد ذلك لم أصدق عينيّ! كنتُ واهناً لأنني لم أتناول طعاماً مناسباً منذ أيام، ومن يدري؟ ربما منذ أسابيع أو شهور، بسبب عاداتي السيئة، قال بووافينْتورا. ارتفعت الحرارةُ مع توالي الساعات وقضت ضرباتُ المعول على قوتي. استلقيتُ فوق الجزء السليم من القبر، مقتنعاً أنني كنتُ مجنوناً بشكل لا رجعة فيه. حاولت أن أهدئ من روعي. في ذاكرتي، وأنا ما أزال من دون قوة كي أنظر مرة أخرى إلى الظلام، أعدتُ بناء ما رأيتُه أو ظننتُ أنني رأيتُه: جسدٌ بشري ممدّدٌ في أكبر جزء مظلم من السرداب، بالكاد تعرفتُ شكل حجمه من خلال اليدين المكسوتين بقفازين والمشبكتين على الصدر، وفي الأركان التي تضيئها الشعلة جزئياً كانت هناك أشياء مختلفة تشبه تلك التي كنتُ رأيتُها في مالوكا الكاجابُّوكوجي، أدوات زجاجية ومعدنية بدا لي من الصعب التكهن باستعمالاتها. كانت الشمس قد بدأت تستَتِبُّ في الأفق، فقررتُ أن أوسع الثقب كي أسمح للضوء الطبيعي بالدخول إلى السرداب. وذلك ما فعلتُ، دون أي اكتراث بإمكانية أن يثير الضجيج انتباه المتوحشين أو حتى أن يوقظ الطفل، الذي ظلَّ صامتاً في المركب. بين ضربة معول وأخرى، كنتُ أفكر أنه ربما اختنق تحت الأغطية التي تلفُّه. لكن البناية بدت أكثر صلابة ابتداءً من

نقطة معينة، صلابة قد يرجع إليها الفضل في الحفاظ على ما ظننتُ أنني رأيتُه، فأصبح المعول غير ذي جدوى. ربما تكون التركيبة المعدنية لأرضية الجزيرة هي الحاسمة في الحفاظ عليه، وربما كان هناك غازُ الميثان الناتج عن بقايا عضوية داخل السرداب، قال بووافينْتورا، ومع ذلك قررتُ أن أشعل عود ثقاب آخر، لأنني كنت بحاجة إلى أن أتأكّدَ مما رأته عيناي أو ما ظنّتا أنهما رأتاه. انحنيتُ على الثقب، ورؤوس غير متساوية من الملاط المتصدع تجرح إبطيّ، ثم دسستُ يدي مع عودِ ثقابٍ مشتعل فرأيتُ الرّجُل محفوظاً في حالة جيدة داخل ما يشبه لباساً من كتلة صلبة وسليمة تقريباً، يشبه ذلك اللباس الذي يرتديه الكاجابُّوكوجي أثناء طقوسهم، باستثناء نسيجه الليفي ذي اللون الأبيض المتسخ، الذي تَمزَّق كثيراً بسبب مرور الزمن وبسبب الحيوانات التي تغذّت عليه. كان رأسه الملفوف في واق مدوّر يمنحُه هيئةَ حشرةٍ ضخمة. كانت مقدمة الواقي مكسرة والوجه ظاهر. كانت هناك شظايا زجاج متناثرة قرب الرأس، لابدَّ أن قطعة ملاط هي التي تسببت في تلك الأضرار. كانت له ملامح آسيوية تشبه ملامح الكاجابُّوكوجي، لكنَّ جسده لم يكن يبدو ملفوفاً في شرائط مثل المومياوات المصرية أو ما يعادلها في جبال الأنديز، بل في لباس متواضع. نظراً لجفاف تجاعيد لحم الخدّين، من الفك حتى الصدغين، لا بد أنه كان هناك منذ وقت طويل. فجأة، في خرَق مؤسف، انفلتَ عود الثقاب من يدي. بينما كنتُ أتهاوى والشعلة ما تزال محتدمة، وهو ما عددتُه لثوان

شيئاً غامضاً لا يرجع سوى إلى جنوني القصير، أضاءَ عود الثقاب من كثب الجسد المُمدّد قبل أن يبلغه، وتعرفتُ، منسوخاً على صدرية اللباس، الرسمَ نفسَهُ الذي كنتُ دمّرتُه عند مدخل القبر. حين التقت بغاز الميثان، أحدثت الشُّعلةُ انفجاراً فاحترق السرداب، وتدمّر الرّجلُ المحنّط والأشياء المحيطة به، قال بووافينْتورا وهو يغطي بيديه جراح وجهه، لكني كنتُ بحاجة إلى إتمام ما حملني إلى تلك الجزيرة. لقد فشلتْ خطتي، ولم يكن هناك من خلاص للكاجابُّوكوجي. الهنديةُ وضعتْ ذكراً بدل أن تلد أنثى. ثم ماتت. الآن لم يبق منهم سوى الرجال. جريتُ حتى بلغتُ المركب، أخرجتُ الطفل من الكوة المرتجلة حيث كان قد بدأ يصيح باكياً، وأخذته إلى الفسحة حيث كانت سحابة سخام قاتمة تنبعث من فتحة القبر. وضعتُ ابني فوق بعض أوراق النخل التي أعددتُها، وثبّتُّه بالأغطية، ثم عدتُ إلى المركب وانطلقت باتجاه التيار الرئيسي للنهر والمحرك يشتغل بأقصى قوته. قال بووافينْتورا هذه الجملة ونظرَ وجِلاً إلى جانبه، من حيث لم تعد تأتي جلبةُ أطفال الجيران ولا أيّ صوت من أصوات الفرح، بالكاد ظلامُ الليل الذي كان قد حلّ ويبدو أنّه الظلام نفْسُهُ الذي رآه في السرداب المفتوح، أو ظلامه الذاتي في دواخله. هينزاوْغاوْ، «**الشر العظيم**». سُمعَ دوي يمكن أن يأتي من الباب أو من نافذة تُطرق، أو من أوّل هزيم الرّعد أثناء عاصفة قادمة، أو من سلاح يطلقُ الرصاص. نظرَ من جديد إلى الكاميرا ونطقَ بجملة غير مسموعة، لأنَّ خلل التسجيل ظهر مرة أخرى، وتابع ينطق

بسلسلة من الكلمات دون أن يقول شيئاً أستطيع فهمه لمدة دقيقة ونصف، ينظر من حين إلى آخر في الاتجاه السابق نفسهِ بكلام مستعجل وبنظرة أكثر فأكثر رعباً، ثم وصل شريط الفيديو إلى نهايته.

علمُ الكونيات
في واكساكا، بَعْد ونهاية

ألفا ٦٠: ما الذي شعرتَ به وأنت تعبر الفضاءات بين المجرات؟

ليمي كوشون: أرعبني صمتُ تلك الفضاءات اللا متناهية.

ألفا ٦٠: ما هو امتياز الأموات؟

ليمي كوشون: أنهم لا يموتون ثانية.

ألفا ٦٠: هل تعرف ما الذي يُحول الليل إلى ضوء؟

ليمي كوشون: الشِّعْرُ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ألفا ٦٠: ما هي ديانتك؟

ليمي كوشون: أنا أؤمن بصفات الوعي المباشرة.

ألفا ٦٠: هل ترى فرقاً بين المبادئ الغامضة للمعرفة ومبادئ الحب؟

ليمي كوشون: في نظري، ليس هناك بالضبط من غموض في الحب.

خلال لقائنا في هواوتلا أثناء عملية تحضير وصول الكاجابُّوكوجي، كشف بووافينْتورا أنه كان يستمع إلى برامج إذاعية في فترة شبابه، وخصوصاً برامج «**إذاعة الساعة**»، التي تبثُّ على الموجات القصيرة انطلاقاً من ريو دي جانيرو، وكان شعارها المتكرر مع نهاية البرامج الليلية يقول: «**كل ثانية تنقضي هي معجزة لن تتكرر أبداً**». ربما كان في السادسة عشر أو الثامنة عشر من عمره عندما اكتشف من خلال برنامج «**هل تعلم؟**» أنه ما تزال هناك شعوب أصلية معزولة في الأمازون، وهو أمر أدهشه، لأنه كان يظن أنَّ كل الهنود كانوا إمّا مندمجين في المجتمع الأبيض أو في عداد الموتى. ومنذئذ، بدأ يفكر في متابعة دراسة الأنثروبولوجيا في الجامعة، وهو الهدف الذي لم يدركه قط.

حتى لو كنتُ خبيراً في قراءة حركات الشفاه، ما كان بإمكاني أن أفهم ما قاله بووافينْتورا في خطابٍ يعجُّ بالجروح خلال الثواني الأخيرة من التسجيل. لقد ضاع إلى الأبد ما همهمَ به لنفْسه، من يدري؟ لعلّه يكون اعتذاراً لابنه الذي تخلى عنه وتركه عُرضةً للأخطار في الجزيرة، أو ربما إلى أم الطفل الميتة. ما تلا ذلك الفعل المجنون لم يكن غريباً عني تماماً: بعد بضع سنوات من الضياع الجامح في لابْريا، تورط خلالها

في الاتّجار بالحيوانات والأعشاب. حدّد أعضاءٌ من «المجلس التبشيري للسكان الأصليين» مكان وجودهِ، وساعدوه على أن يتخلّص من الإدمان على الكوكايين والكحول، من خلال العمل التطوعي لفائدة جماعات السكان الأصليين والمقيمين على ضفاف الأنهار الذين طردهم المحتلون من محمياتهم وقُراهم. لفترتيْن قصيرتيْن، عاد بووافينْتورا على مضض إلى ساوْ باوْلو ليشارك في مؤتمرات، التقى خلال واحد منها ماريا سابينا الرائعة. هكذا، حالما عاد، وحتى قبل أن يبلغ الأربعين من عمره، انعزلَ نهائياً في المركز المتقدم التابع «للمؤسسة الوطنية لشؤون الهنود» على تخوم أرض الهنود الزورْواها، حيث عاش على ضفاف نهر بْريتاوْ مع شعوب الجوكيهي والهاهابيري. لكنَّ فكرهُ لم يعد قط من المنفى الذي قادهُ إلى اختطاف تلك الهندية التي لا اسم لها.

بعد عدة سنوات، ذات عشية مشمسة على ضفاف النهر، وبينما كان يعالج جرحاً ناتجاً عن لدغة ثعبان أصاب ساق طفل من الجوكيهي، ظهر جورج وسيلفيا ماريا فولير دون سابق إنذار في المركز، قادميْن على متن مركب من لابْريا حيث بحثا عنه دون جدوى. كانت الاتهامات الموجهة إليه قاسية، وألقت سيلفيا بكل خطايا بووافينْتورا على الطاولة، دون أن يقوم هو بأي محاولة للبحث عن أعذار لأخطائه. في الحقيقة، لم يكن هناك من عذر ممكن، ومع ذلك، نظراً لما زوّداهما به المبشرون من معلومات، قدّرا ما بذله بووافينْتورا

من جهود في خدمة المحتاجين وتجديد نفسه. بعد هذا التفاهم الصريح، حكيَا لبووافينْتورا عن حرصهما على نشر سياسة عدم الاتصال بالشعوب المعزولة كممارسة بين المدافعين عن الشعوب الأصلية التابعين «للمؤسسة الوطنية لشؤون الهنود» والمنظمات غير الحكومية. مدَّ ذلك الحديثُ بووافينْتورا بمفتاح خلاصه الذاتي كما كشفَ لي في هواوتلا، وبدأت أسطورتُه الشخصية تتبلورُ ابتداء من أول رحلة قام بها على انفراد إلى أرض الكاجابُّوكوجي.

في السنوات التالية، سيسافر دائماً وحده إلى منطقة أعالي نهر بوروس، لكنه لم يتصل قطُّ بالسكان الأصليين، واكتفى بملاحظتهم عن بُعْد في المناسبات النادرة التي كان فيها ذلك ممكناً. من مركبه أو من الأدغال، كان يعتني بهم كما لو كان حارساً خفياً يحرس حاجزاً خيالياً يشكلُ هو نفسُه إطارَهُ الأساسي، مركبه، أسلحته، وعزلته المسكونة بالأشباح. راجت وسط المتخصصين في شؤون إقليم السّرْتاوْ حكاياتٌ عن صراع بووافينْتورا لمنع الباحثين عن الذهب ومستخلصي المطّاط من الاقتراب من الكاجابُّوكوجي، كما ذاع صيتُ شراسته بين المحتلين غير الشرعيين الذي أصبحوا يخشونه.

بعد خمسين عاماً تقريباً، أيقظتهُ مكالمةٌ راديو من المركز المتقدم: كانت سيلفيا مرة أخرى، تعرّف صوتَ لهاثها بوصفها مدخِّنة ما أن سمعَها، فقد كان يعلمُ أنها قد بدأت تدخن أكثر من اللازم بعد وفاة جورج، التي وقعت منذ فترة. عبر جهاز

الراديو، كشفت سيلفيا لبووافينْتورا عن طلب اللجوء السياسي للكاجابُّوكوجي، الذي توسط فيه مبشرون ونشطاء من «Survival International»، وعن طلب السكان الأصليين بأن يكون هو المسؤول عن المفاوضات. حين سمع ذلك، ظلّ بووافينْتورا صامتاً، ينصتُ إلى ضجيج التيار يصطدم بأعمدة المسكن العائم الذي يحتفظ فوقه المركز بتوازنه، يلاحظ الدوائر المنتشرة فوق سطح الماء الناتجة عن قطرات المطر حين تلمس النهر، الذي كان متوهجاً للغاية تحت ضوء القمر حتى أنه يبدو مغطى بالحراشف.

ربما عدَّ ذلك الطلبَ ضرباً من العفو. لكن كيف له أن يعرف ذلك الآن؟ إن لم يكن فقط من خلال التكهنات وسوء الفهم الحتمي، ومحاولة تفسير الوعي المتوحش. عندما تخلى عن الطفل في جزيرة الضباب، كان بووافينْتورا قد سلّم نفسَهُ للصدفة من أجل القيام بتضحيته. على أي حال، ربما يكون الكاجابُّوكوجي قد عثروا على الطفل قبل أن يبتلعه حيوان مفترس أو ينهشه النمل، أو ربما يكون، تحت ضغط الخطر، قد تعلّمَ فجأة كيف يزحف فسقط في السرداب المحترق. لكن يمكن ألا يكون الأمر كذلك. كل هذه الاحتمالات قد تنتهي بموته، بيد أنّ الأمر المستبعد هو ما حدث؛ عُثرَ على الطفل حياً وآواه الكاجابُّوكوجي. لكن، خلال كل تلك العقود من المراقبة عن بعد، ربما كان بووافينْتورا يحمي ابنه، وليس الهنود. ومع ذلك، لم يكن ممكناً معرفةُ إن كان قد رآه مرة أخرى، وحتى

إن رآه هل تمكَّن من التعرف عليه من بعيد؟ لم يعد ذلك هامّاً، مهما كانت الحقيقة. لم يكن بووافينْتورا يستحق العفو.

بما أنني لم أتوصّل بمكالمات أخرى من المُفوّض، استنتجتُ أنّ الوضع في معهد الطب الشرعي لا بدّ أنه قد هدأ. عدتُ إلى الحاسوب وأرجعتُ شريط الفيديو إلى اللحظة التي كان بووافينْتورا يشير فيها إلى نظرية نشأة الكون لدى الكاجابُّوكوجي كما جاء في شروحات على لسان الهندية. كنتُ أتذكر فحوى المقال الوحيد الذي كتبه بووافينْتورا حول الوثنية الفوضوية عند الكاجابُّوكوجي -وكان عنوانه عن قصد هو «شوبنهاورات متوحشون»- ربما تستطيع بعض مقاطع كلامه غير المفهوم في الفيديو أن تسلط عليه بعض الضوء. حسب الهندية، فإنّ الهنود ينتحرون، قال بووافينْتورا في الشريط، لأنهم يرغبون في الاستمرار في السماء الثالثة، شباناً وشجعاناً، وليس شيوخاً عاجزين. لذا فإنّ المعنى الكامن في طقس التِّنْسانهان هو الانبعاث في الديسانْواي، السماء الثالثة. وكشفت الهندية أن الهنود يضعون حداً لحياتهم قبل أن تموت أرواحهم، فيظلون شباباً في كل نسخ ذواتهم على امتداد دورات التكرار الحتمية التي توقعوها من خلال فكرتهم عن الزمن، وأنّ **الأصل سيتكرر على الدوام**، قالت، **لأنّ عدد الأشياء التي تشكل العالم محدودةٌ**، وحتى يتم بلوغ ذلك العدد، فإنّ شيجي، العالَم، عليه أن يتكرّر. ومرة أخرى، سيتيه الرُّبّان، ومرة أخرى سيتبرّزُ الخنفس العظيم سحابةً سوداء من

خمسين من الخنافس، هييّينَ، ومرة أخرى سيتبرَّزُنا الرُّبان التائه، ليأتي بنا إلى هنا مرة أخرى ومرة أخرى، قالت، وسنظلُّ سجناء إلى الأبد في مجرى هذا النهر من الفناء والانبعاث. على عكس الفرح والكمال اللذيْن يسمحان للإنسان الأبيض في شبابه بالعيش متجاهلاً ما ينتظره عندما يكون ما يزال يصعد الجبل ويرى، من ثم، الموت في الجهة الأخرى، فإنَّ الإنسان الكاجابُّوكوجي يواجهُ الموت في وقت مبكر وينظر إليه بكآبة. بعد بلوغ قمة الجبل، ينظرُ الإنسان الأبيض دون مشاكل إلى ما ينتظرُنا منذ الأزل، فيختفي مرحُه وتغطي وجهه ندوبٌ يخلفها الزمن والسهام، أمَّا الإنسان الكاجابُّوكوجي، حين يدركُ القمة، فإنه يتذكّرُ أن ينظُرَ إلى الخلف فيرى جبلاً مطابقاً لذلك الذي تسلّقه للتو، وفوقه إنسانٌ مطابق لذاته، مما يجعله يفكر في الجبل أمامه، الشبيه تماماً بالجبليْن السابقيْن، ويرى في الإنسان عند أعلى قمته نسخةً متكررة إلى ما لا نهاية من نفسه تتكرر في الجبل الموالي وهكذا دواليك: نحو الخلف ونحو الأمام. كان الكاجابُّوكوجي يرون أنفسهم أفراداً وجماعةً. كان الأبُ، الابنُ والحفيدُ يشكلون كاجابُّوكوجياً واحداً متزامناً وخالداً عبر الزمن.

بعد الانتهاء من متابعة الفيديو، فكرتُ في اللحظة التي انتبهَ فيها رجال الكاجابُّوكوجي إلى عمود الدخان الأسود المنبعث من حريق جزيرة الضباب، وإلى هدير مُحرّكِ مركب بووافينْتورا الهارب، فعثروا على قبرهم المدنس وعلى الطفل المتخلي

عنه، يبكي وهو على وشك أن يسقط في السرداب المحترق. ربما يكون اختفاء الرجل المُحنّط الذي رآه بووافينْتورا في أعماق السرداب، وتلاه ظهور الطفل، مندرجاً في تصوراتهم البدائية، وأنَّ السكان الأصليين أدركوا أن شيكوفييْشيغيوان، الرُّبان التائه، جاء مرة أخرى من الديسانْواي، السماء الثالثة، داخل التِّنْسانهان، الخنفس العظيم، حتى بلغ شينجي دي شوروميان، جزيرة الحلم المقدس. بالنسبة للكاجابُّوكوجي، قد يكون ذلك تأكيداً متجدداً لحقيقتهم الأصلية. أو ربما لم يكن أي شيء من هذا، ولا يعدو مقال بووافينْتورا أن يكون كذبة ابتكرها لتمجيد عمله خلال عدة سنوات، وإخفاء ما ارتكبه من أخطاء وما اقترفه من جرائم ضد الإنسانية.

وأخيراً، يمكن أن يكون كل هذا، منذ نَفْي الكاجابُّوكوجي إلى واكساكا، مجرد احتيال سياسي ماكر مغلف بغطاء القضايا الإنسانية الكبرى. في هذه الحالة، قد أكون بليداً مسخراً ومتواطئاً عن غير قصد، ربما كان يتمثل دوره في خداع المازاتيكو. أو ربما لا شيء من هذا: ربما أكون أصبتُ بالجنون نفسهِ الكآبة التي ألمّتْ ببووافينْتورا في شبابه، إنهُ جنونٌ أو جهلٌ دفعه إلى اتخاذ أفظع القرارات (حسب قوله شخصياً). من يدري؟ ربما كنتُ مجنوناً ولكني أبيتُ أن أرى ما حدث فعلاً أمام عينيّ، وصولُ الكاجابُّوكوجي وانتحارهم لاحقاً، هم الذين جاؤوا إلى هنا ليحموا من المُدمّرين إلههم شيكوفييْشيغيوان، المتخفي تحت صباغة الأوروكوم الحمراء.

لقد جاؤوا لحماية أنفسهم.

لكنَّ جنوني كان أشدّ غرابةً. على خلاف الكاجابُّوكوجي، كنتُ أتخيّلُني شخصاً آخر، شخصاً مختلفاً عن والدي، الذي كان بدوره يرى نفسه مختلفاً عن جدي. كان غناؤنا المشترك ينقطع من جيل إلى جيل، كنا نعيش في الوهم. لم نكن أحراراً، بالكاد كنا وحدنا.

أخرجني تفكيري من المكان الذي كنتُ فيه جامداً، وعندما اهتزّ الهاتفُ الخلوي في جيب سروالي، كنت مُسمّراً أمام اللباس الرسمي للكاجابُّوكوجي داخل إطار على جدران الصالة، أتأمله دون أن أتوقف، مع ذلك، عند تفاصيله. عندما كنتُ أنظر إلى اللباس، سرعان ما كان ذهني يفرغ من المشاكل المباشرة، ويتيهُ في ثنايا نسيجه المعقد. على شاشة الهاتف كان يظهر رقمُ مُفوّض الشرطة، وهذا الأمر، لكونه شرطياً يتّصلُ بي، جعلني أفترضُ أنَّ شيئاً ما كان على ما يرام من قبل ولم يعد كذلك، مع إمكانيات حقيقية ليتدهور كثيراً في ثوان قليلة إن لم أجب على المكالمة. على أي حال، أجبتُ على الاتصال.

هاجم نشطاءٌ مستودعَ الأموات في البلدية، قال المُفوّض حتى من دون أن يقول مساء الخير على الأقل. أطلق هذه الكلمات الستّ عبر الهاتف ولاذ بالصمت، مما ذكّرَني بنابِه الذّهبي البارز. لو أنَّ السّنّ كانت ظاهرة في تلك اللحظة، فذاكَ يعني أنه يبتسم في الجهة الأخرى من الخط. إن لم يكن كذلك،

فإنَّ الأمر يمكن أن يندرج ضمن الأمور الأكثر خطورة، التي عادة ما ينتج عنها شيء مزعج تطالب به الشرطة المكسيكية: استعمال الذكاء بدل استعمال القوة. هذا ما فعله أولئك الراديكاليون «هنود الحواضر الكبرى»، تابع. على ما يبدو، أنت لا تتابع نشرة الأخبار. صحيح أنني كنتُ شارداً، لأنه ربما أفلتت من لساني تلك الفكرةُ المسيئة للشرطة المكسيكية التي كانت ما تزال تجول في ذهني وهي تفور في حالة تشكل أوَّلي، إذ سرعان ما كشف لي المُفوّض أنَّ تنظيم «هنود الحواضر الكبرى» أعلنوا مسؤوليتهم عن موت بوافينْتورا، مُدّعين أنَّ المجرم قد تمّت مقاضاتُه وحُكم عليه بابتلاع كبسولات الكوراري المُركّز التي تسببت في إصابته بسكتة قلبية. وهم الآن يطالبون بإعادة جثامين الكاجابُّوكوجي إلى موطنهم الأصلي، إعادة توبّونا أجدادهم الموتى، حسب ما يقولون. كل شيء موصوف في التصريح الذي نشرته الصحافة، قال المُفوّض. في ذلك الفجر، بعد أن اعتدوا على حراس معهد الطب الشرعي، حاول «هنود الحواضر الكبرى» أن يسرقوا الجثة رقم ٥٠، جثة الرجل الأبيض، الذي لم تُحدّدْ لنا هويّتَهُ بعدُ كما وعدْتَنا يا سيدي، قال المُفوّض. وصلت الشرطة إلى مستودع الأموات في الوقت المناسب لمنع سرقته، لكنها لم تمنع «هنود الحواضر الكبرى» من الفرار، تابع المُفوّض، رافعاً صوته كأنه يتحدث مع أصمّ، وليس مع شخص لديه معلومات خاطئة. إنهم يدّعون أنّ الجثة رقم ٥٠ كانت هي مفتاح الخدعة التي ابتُكرَت للتّستُّر على جرائم ضد الإنسانية. إبادة

جماعية، بالإضافة إلى تخريب مَعْلَم هام من المَعالم الأثرية الكاجابوكوجيّة، من دون أن يعلم أي أحد بالضبط أيّ مَعْلَم كان «هنود الحواضر الكبرى» يقصدونه بكلامهم. من الضروري أن نحلّ هذه المشكلة، وستزودك رئاسة مكتبك بالمعلومات الضرورية، قال مُفوّضُ الشرطة. لقد عُلّقت إجازتك وستعود إلى المكتب. أُعطيت الأولويةُ إلى قضية الترحيل على حساب التحقيق بشأن هوية الجثة رقم ٥٠، قال. وبهذا الخصوص، ننتظرُ منك في أي لحظة أن تُزوّدنا بمعلومات تتعلق بنتائج التحقيق. وفي انتظار قرارات عليا، المرجو ألاّ تغادر واكساكا، ختم المُفوّض. طاب يومك. ثم وضعَ السّمّاعة.

كما كان منتظراً، لم أكن أعرف «هنود الحواضر الكبرى»، بالكاد أعلمُ أنها منظمة سياسية أكثر شبهاً بجماعة من المجرمين، أظن أنها تتكون من مقاتلين من السكان الأصليين ينتمون إلى أعراق مهددة من العالم بأسْره، من قبائل سنتينيلا، نافاجو، مباياغواراني، سوروواها، أباتشي، زويي، هيَ فيلقٌ أجنبي من السكان الأصليين كان يضم الكاجابُّوكوجي أيضاً على ما يبدو. توجهتُ إلى الحاسوب لأعرف عنهم المزيد، وبعد أن تأكدت من عملياتهم المباشرة عبر أنحاء العالم، وجدتُ التصريح الذي يتبنون من خلاله مسؤولية قتل بووافينْتورا. كان يشير إلى تخريب قبر جزيرة الضباب كسبب من الأسباب، وهو ما دفعني إلى التفكير في عكس ما فكرتُ فيه من قبل: ربما يكون حادث اللجوء السياسي للكاجابُّوكوجي قد استُعمل ذريعة

لاستعراض جرائم بووافينْتورا، بدعم من «هنود الحواضر الكبرى». ربما تكون مؤامرة ضد عمليات الحفر والنبش التي طالت مقابر السكان الأصليين، واستنكاراً للعنف الهائل الذي مارسهُ الاستعمارُ، واستيطان الموت. لذا، حُكمَ على بووافينْتورا بالانتحار. ولم يكن شريط الفيديو سوى رسالة وداعه.

وبينما كنتُ مستغرقاً في مثل هذه التخمينات المتناقضة، استرعت انتباهي الصفحةُ الأولى من محرك البحث على الشاشة: كان برج المراقبة في محطة بايكونور الفضائية قد تمكن من استعادة ربط الاتصال بمركبة تيانتانغ ١، التي تاهت أثناء رحلتها نحو المريخ. كانت إشارات راديو مترددة وما تزال ضعيفة، بالكاد أصوات تُرسلُ بشكل متتابع، لكن بقوة كافية تسمح باستنتاج أن المركبة لم تتعرض للدمار. لكن، كان أمراً سابقاً لأوانه معرفةُ ما إذا كانت مهمة استيطان الكوكب البعيد خارج منطقة الخطر. من الواضح أن قرار إرسال زوجين فقط على متن مركبة تيانتانغ ١ أمر يُعزى فقط إلى لوجيستيك العملية: ضيق المقصورة، شحّ الميزانية الهزيلة التي رصدها الحزب الشيوعي الصيني، والرأي العام في المجتمع الغربي ذو النزعة الأحادية. لولا هذا كله لكان الطاقم يتكون من عدة أفراد، ولتَمّ استيطان المريخ من خلال عمليات جماع خارج الجاذبية، تغْنيها عمليات جنس جماعية وافرة متعاونة ومنخرطة في التزاوج. كانت هذه الأفكار المثيرة للاشمئزاز تتسكّعُ في

وعيي المحدود، بل إنني ذهبتُ إلى حدّ التفكير في أن زوجَيْ مركبة تيانتانغ ١ ربما يكونان قد غرقا عن قصد في نقاش يتعلق بالجماع الفلكي، وهما ضائعان في تخوم المجرة، وأنا أعثرُ على صورة عُضويْ الطاقم، باسميْن في ملابسهما الفضائية والخوذتانِ في يديهما، يلوحان صوب الكاميرا أمام الباب الضيق المفتوح في الكبسولة الفضائية على وشك الإقلاع، قبل بضعة أيام. كان الرجل شبه أحدب، وهو ما عزوتُه إلى الضيق المحتمل داخل الكبسولة، حيث تبدو هذه الحدبة نِعْمةً. كانت وضعيته تُذكّرُ بساعي بريد عائد إلى عمله بعد إضراب طويل في مصالح البريد، يغلبُه ثقلُ كيس مليء بالمراسلات المتأخرة، ساعي بريد ذهب ليُسلم رسائل في عنوان قصيّ، تاه في الطريق ولم يعد قطّ. أما المرأة بجانبه، فكانت قصيرة القامة مثل المرأة الهندية في الصورة التي عرضها عليّ بووافينْتورا في شريط الفيديو. فتحتُ لقطة الشاشة التي أخذتُها عن الصورة، صورة الشابة الكاجابُّوكوجية والطفل في حضنها تحت ظل شجرة سيبيبيرونا في لابْريا، وقارنتُها بصورة عضو طاقم مركبة تيانتانغ ١. كانت لهما معاً الابتسامة نفسها عند زاوية الشفة، وعينان كعينيْ أنثى نمر صينية بالوجه المُدوّر نفسه الذي رآه بووافينْتورا ثانية على شاشة واجهة محلّ في أوتاوا. وأسنان متسقة البياض مثل أسنان امرأة ميتة.

أقلقني التشابه بين المَرأتيْن. شعرتُ أنَّ أحداً يراقبني وأنا جالس أمام الحاسوب، تحاصرني رفوف فارغة في المكتبة

التي كان يملكها والدي، أديرُ ظهري للنافذة المشرعة على الشارع. اشتدّ هذا الإحساس المُزعجُ وفي دقائق قليلة أصابني صداعٌ نصفي قوي، أخذ ينبض في صدغَيّ. وأنا ألتفُّ فوق الكرسي، مستديراً لأقف على رجليّ، رأيتُ أنَّ صديقة أمي، الجارة التي ترمّلت مؤخراً، كانت تنظر إليّ من الجهة الخارجية للنافذة بوجه يخيم عليه الغمّ. (سمعتُ صراخاً)، قالت المرأة وهي تعلق يديها السمينتيْن على حافة النافذة. لكنني لم أكن قد صرخت، هل فعلتُ ذلك؟ سألتُ نفسي دون أن أفتح فمي. بسبب قامتها القصيرة، بالكاد كان يُرى جبينها وأنفها الأحمر البارز من بين القضبان. (أعتقد أنه ينبغي لكَ أن تخرج قليلاً من البيت)، قال صوت الجارة دون أن أستطيع رؤيتها بالكامل، (ليس من المفيد أن يبقى المرء وقتاً طويلاً دون أن يرى أشخاصاً أحياء)، ألحَّت. أطلقت الجارةُ في الهواء هذه النصيحة -نصيحةٌ كان بإمكان أمي أيضاً أن تسديها- ثم اختفت تماماً. قررتُ أن أطيعها، فتابعتُ سيري نحو الغرفة لأغيّر ملابسي ثم أخرج بعد ذلك، حتى أصفّي ذهني لبضع لحظات في مقهى الحي رفقة أشخاص أحياء، حتى لو كانوا غرباء عني.

وأنا أمرُّ أمام الإطار الذي يضمُّ اللباس الكاجابُّوكوجي الرسمي على جدار الصالة، تعرفتُ بلمحةٍ النسيجَ الدقيقَ من التِّبْن المَجْدول، وهو الرسم نفسهُ الذي كنتُ رأيتُه على اللباس الخاص الذي يرتديه عُضوا طاقم البعثة الصينية عند إقلاعهما من محطة بايكونور الفضائية. بدا لي من المستحيل

أنني لم أنتبه إلى ذلك التفصيل من قبل! وهذا سهو لا يمكن أن أعزوه سوى إلى تشوّش ذهني حينئذ، لكن ذلك هو ما حدث: كان الرسم المَجْدول على اللباس الرسمي للكاجابُّوكوجي مطابقاً لشعار مركبة تيانتانغ ١ المطبوع على صدر الملابس الخاصة لفرديْ الطاقم. بلغَ الصّداعُ النصفي أوْجهُ، وامتدّت آلامُه من الصّدغيْن حتى منتصف الجبين. شيء ما لم يكن على ما يرام في ذاتي، كانت جلطة دماغية تبدو وشيكة. عدتُ إلى الحاسوب وحرّكتُ الفأرة نحو الخلف على شريط التمرير لمشغل الفيديو، لأعود إلى النقطة بالضبط التي كان بووافينْتورا يستعرض فيها الرسم الذي رآه في قبر جزيرة الضباب. مرتبكاً، عرضهُ أمام الكاميرا رأساً على عقب.

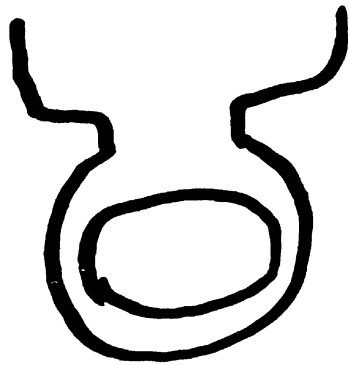

لويتُ عنقي أمام الشاشة، وتخيّلتُ الرسم في الوضعية الصحيحة، الوضعية نفسها التي يظهر عليها اللباس الرسمي للكاجابُّوكوجي، وفي لباسيْ فرديْ طاقم مركبة تيانتانغ ١،

وفي اللباس الغريب الذي كان يرتديه الرجل المحنّط في القبر الذي حطّمتهُ النيرانُ قبل خمسين عاماً.

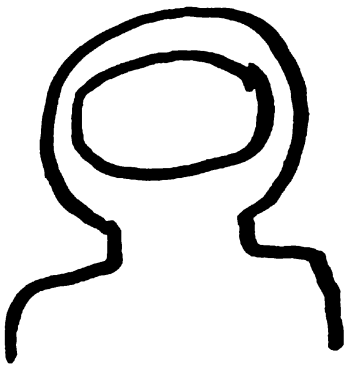

بدت لي عملية إرجاع مشغل الفيديو وتقديمه أمراً مثيراً، فبقيتُ أحرّكُ شريط التمرير إلى الأمام وإلى الخلف لمدة غير محددة. ما كان يراه خيالي في تلك اللحظة كان متزامناً، لكنّ الواقع كان مشروطاً بالخَطِّية، كما كان شأن ذلك الفيديو أيضاً. في الفيديو كان هناك شيء سابق وشيء لاحق، خلافاً لما يحدث في الحياة. كي أعود إلى النقطة التي أخطأ فيها بووافينْتورا وهو يستعرض الرسم مقلوباً، كنتُ بحاجة لأن أرى جرحه يلتئم ويعيد التئامه من خلال بِكْسلات مشوهة، مُربّعاً بعْد مُربّع، مما يمنعُني من الذهاب مباشرة إلى نقطة الخطأ. بطريقة ما، إنَّ الصدفة الثلاثية لذلك الرسم على شكل خوذة رائد فضاء كانت دليلاً على أنه يمكن التحكم في الزمن، وأنه ليس أمراً صعباً لا رجعة فيه كما يريد البعضُ. حين انعزلوا داخل ذاتية

زمنهم الخاص قام الكاجابُّوكوجي بتخريب الزمن التاريخي والموضوعي. إن الزمن، تلك الحركة غير المنقطعة التي يصير الحاضر بواسطتها ماضياً، قد تلبّكَ عندما أصاب السّهمُ وجْهَ بووافينْتورا وانفجرت المادّةُ كاملةً بسرعة أكبر من سرعة الضوء، انطلاقاً من حالة كثافةٍ لا متناهية. في تلك اللحظة، نقطة البداية، البيغ بانغ، انضمّ المازاتيكو والمينونايت إلى السياح في وسط واكساكا التاريخي، حيث بدؤوا يمشون في متوالية من اللحظات في تعاقب غير محدد ومستمر لأحداث من الماضي، والحاضر والمستقبل، التي يُنظر إليها على أنها خطأ شامل يمكن تغييره. وجاء علماء البرنامج الفضائي الصيني ليُشْعِلوا فيه هناك، في محطة بايكونور الفضائية، ساعةً قديمة من سنة ٥٠٠ قبل الميلاد تعود إلى سلالة سونغ، حيث عيدان بخور حُدّدت عليها مستويات بعلامات بدأت تحترق بإيقاع مستمر لتشير إلى الزمن المنصرم، الذي قلب مدة الأشياء الخاضعة للتغير. وسَمحَ الحجمُ الفيريائي للكاجابُّوكوجي بترتيب توالي ما حدثَ بوضع ماضٍ، وحاضرٍ ومستقبلٍ ليسوا خطّيين. وسمحوا بدورهم للرائديْن الفضائييْن على متن مركبة تيانتانغ ١ بالتناسل ليس في الفضاء، بل في الزمن، ليملآ أرض الكاجابُّوكوجي بأطفال لهم وجوه بملامح صينية وأناقة أنثى النمر، ويُحوّلا أعالي نهر بوروس إلى جنّة أصلية. حتى جاء بووافينْتورا وأطلّ على القبر العميق، ثم أشْعلَ عودَ ثقابه، الذي بدَلَ أن يضيء السرداب بالشعلة، بدَلَ أن يرى إن كان الضوء جيداً ويميزه من الظلام، فقط حوّلَ ظلامَهُ إلى ظلام أشدّ سواداً.

أعادني اهتزازُ الهاتف الخلوي إلى كوكب الأرض، إلى محطة بايكونور الفضائية. كان المتصل هو شعارُ فريق «الصليب الأزرق»، الذي ظلّ مختفياً في الساعات الأخيرة. بالإيجاز المعهود في الأوامر التي تجبُ إطاعتُها، كانت الرسالة التي بعثها رئيسي تلغي إجازتي، وتكلفني في الوقت ذاته بأخذ خمسين جثة لنقلها في رحلة العودة إلى موطنها الأصلي. لم تسمح الحكومة البرازيلية للمازاتاتيكو بالقيام بالرحلة، كتب الرئيس: لم يكن البرازيليون يطيقون هنودَهُم ويريدون الابتعاد عن هنود غيرهم. كان مجهودي في هذا الحدث ضمانة لترقية في العمل، تابع شعار فريق «الصليب الأزرق». في المكتب، كان امتياز المهمة قد بدأ يثير الحسد بين الزملاء. كنتُ أستطيع أن أتباهى بمسؤولية كبيرة من هذا الحجم. يا له من شرف حقا! كانت الجثامين بين أيادٍ أمينة، لا يمكن أن يصيبها شيء آخر أكثر من هذا لأنها كانت ميتة. وسيتكلف مُفوّضُ الشرطة بالإجراءات التي يجب اتباعها، ولن يكون هناك من مشكلة. منظمةُ «Survival International»، وإن لم تكن حكومية، كانت مؤهلة بشكل كبير. ولا ينبغي لي أن أنشغل بجماعة «هنود الحواضر الكبرى»، لأنهم فوضويون بليدون على وشك الانقراض. رحلة سعيدة. إلى اللقاء. وداعاً «الصليب الأزرق»، فكرتُ مع نفسي. وداعاً ومع السلامة إلى الأبد.

استخدمتُ المؤشر نفسه الذي استعملتُه في رحلة سفري عبر الزمن الخطّي لمُشغّل الفيديو، وسحبتُ الأرشيف الذي

أنتجهُ بووافينْتورا نحو سلّة المهملات في الحاسوب. ذلك الصوتُ الذي تُحدثُه سلة المهملات حين تُفرغ زادَ من إحساسي بالراحة. وبارتياح مماثل، تأكّدتُ من أنّ صلاحية رابط التحميل كانت قد انتهت، وحتى أتأكد من أنه لن يبقى أي أثر للتسجيل ضبطتُ من جديد نظام القرص الصلب للحاسوب. لدي دوافع تجعلُني أخمّن أن شيئاً مشابهاً لهذا أو أفظع منه وقع لحاسوب بووافينْتورا. بعد ذلك، ذهبتُ إلى الصالة وسحبتُ الإطار الذي يضم اللباس الرسمي للكاجابُّوكوجي على الجدار، ورميتُه أرضاً. أخذتُ أعواد ثقاب من المطبخ وسائل الكيروسين الذي كانت أمي تحتفظ به تحت المجلى لتنظيف قطع معدنية، ثم نثرتُه فوق الإطار وأضرمتُ النار. وسرعان ما تعالت ألسنة اللهب، تلوَّى اللباس الرسمي للكاجابُّوكوجي، الذي بدا لحظةً كأنّه يرقص، عندما اشتعلَ الثّوبُ التّبْني وانتشرت الجمرات عبر الرسم. في لحظة معينة انفجرَ الزّجاجُ الذي يغطي اللباس مُحدثاً دويّاً حاداً، فامتدت ألسنة اللهب من أخشاب الإطار نحو الكيروسين المنسكب فوق الأرضية، وبلغت الرفوف التي كانت يوماً ما ملك والدي. باندفاع قوي، ارتفعت النار عالياً وانتشرت عبر ألواح السقف وعبر العوارض، ثم نزلت عبر الخشب الذي يغطي الجدران لتلتهم كل الصالة. أفزعتني الحرارةُ المنبعثة من الممر المؤدي إلى المخرج الرئيسي، ولاحظتُ بدهشة أنَّ داخل المنزل الكبير كان بكامله مغطى بالخشب. أسوأُ اختيار قام به والدي: كان عليه أن يستعمل الحجر الطبيعي الذي يمتاز

بقابليةِ اشتعالٍ أقلّ من الخشب. عندما وصلتُ إلى الرصيف في الجهة الأخرى من الشارع، كان حشدٌ صغير من الناس قد تجمعوا أمام الحريق. خرجتُ أتسكع عبر شوارع واكساكا ويداي على رأسي المشتعل بدوره، واستطعتُ أن أتعرّف وسط الفضوليين من المازاتيكو والمينونايت تلكَ الجارة صديقة أمي: كانت ألسنةُ اللهب التي تلتهم المنزل الكبير تظهر منعكسة في عينيها المُبلّلتيْن المُمطّطتيْن.

لا بدَّ أن رجال المطافئ قد تأخروا في الحضور، ربما لأنَّ الوقت كان متأخراً جداً، وهم منزعجون من مهنة تعرّضهم إلى الحرارة، ربما كانوا يحلمون أن يشتغلوا رجالَ إنقاذ في شواطئ يوكاتان بدَلَ أن يكونوا رجال إطفاء. من شارع موازٍ حيث توقفتُ لأشرب جرعة، لاحظتُ أنه فوق أسطح الموقع التاريخي كانت الحاملة الرئيسية للمنزل الكبير المشتعلة تنهار فوق هيكل الجدران، رافعةً شرارات إلى السماء، ففكرتُ أنَّ ذلك كان أعنف خاتمة لرثاء حزن لا يمكن تصوره أبداً. مع الحريق، تركتُ ورائي العائلة. حرّرني حدثُ ليلة واحدة لأسافر عبر الفضاء والزمن. كنتُ مستعداً أن أتخلّى عن الوطن والملجأ، عن الأنا والوظيفة، عن الوعود والأحلام. عن الحياة وديونها، من يدري؟

أدركتْني أولى ساعات الصباح جالساً على حافة الرصيف، أنظر بخيبة إلى ركام الرماد الذي تبقّى من المنزل الكبير لوالديّ ينفث آخر خيط من خيوط الدخان الأسود. إلى جانبي، يحمل

في يديه نسخة من رواية «**بيدْرو بارامو**» التي كانت ضمن مكتبة والدي، كان يجلس مُتسوّلٌ بمظْهر راهبٍ. وأنا أرى وجهه المظلّل برفٍّ قُبّعة واسعٍ من التبن، تساءلتُ إن لم يكن بالفعل صينياً أو يابانياً؟ مدَّ ليَّ الكتاب، كما لو كان الشيء الوحيد الذي نجا من ألسنة اللهب، وقال: إنَّ قتل بوذا وقتل الوالديْن هما الطريقتان الوحيدان للتّخلُّص من الارتباطات. فكرتُ أن أعانقه أو أن أعطيه قطعة نقدية صغيرة، ولما دسستُ يديّ في جيبيْ سروالي وجدتُ مفتاح المنزل الكبير، فقدمتُه إليه. رماني المتسول بنظرة ارتياح من يعرفُ أنه قد فهمه الآخرون. لكني رفضتُ الكتاب وأنا أرى هيرنانْديث وفيرنانْديث يركنان سيارة «كامارو» القديمة على بعد بضعة أمتار من هناك. كانا قد جاءا لينقذاني من الأنقاض العائلية ويأخذاني إلى المطار.

وأخيراً، حانت ساعةُ الرحيل. الآن، كانت أخبارُ أحوال الطقس التي يقدمها المذياع من لوحة القيادة في سيارة هيرنانْديث وفيرنانْديث تشيرُ إلى عاصفة رعدية غير متوقعة تمتد عبر عدة مناطق من كوكب الأرض، من الصحراء الكبرى إلى صحراء سونورا، ومن لابْريا إلى كازاخستان. ويربطُ علماء فضاء، دعماً لعمل برج المراقبة في محطة بايكونور الفضائية، فقدان الاتصال بمركبة تيانتانغ ١، التي لم يتمكن العلماء بعد من فكّ إشارات الراديو المنبعثة منها فكاً كاملاً، بعدم الاستقرار في الطقس. في الوقت الذي أسقط خلاله الحريقُ المَنزلَ الكبير لوالديّ، ظلَّ العالم يدور حول الشمس، واستمرَّ هيرنانْديث

وفيرنانْديث في صمتهما المُلحّ. كان الوقتُ ما يزال مبكراً جداً، وحتى الهنديات المازاتيكو مع أكشاك البيع لم يظهرن بعدُ في ساحة واكساكا. عبرت سيّارةُ «كامارو» زوايا مقفرة، وتبعتْها بروقٌ تخدش السماء، وانتقل المذياع من نشرة الأخبار إلى بثّ آخر أغنية ريغيتون بعنوان «**نهاية العالم**» لمجموعة «نينجا زاباتا» الغنائية. لمّا سمعَ أولى نغمات الموسيقى، أطفأ فيرنانْديث المذياع بتذمُّر. الآن أعرف شيئاً عن شخصيته الصامتة التي أستطيع أن أعجب بها: إنَّ فيرنانْديث ليس ممارساً للصمت لا يتزعزع فحسب، بل إنه أيضاً يمْقتُ أغاني الريغيتون وفكرة نهاية العالم. كان المطر ينهمر فوق أسطح المدينة، مطلقاً رائحة تراب مبلل في الحقول تصل حتى إلى الطريق. لم يكن لدي وقت لأتخذ من المنزل الكبير لوالديّ بيتاً لي. كانت لازمة أغنية مجموعة «نينجا زاباتا» تلتصق بذهني: **نهاية العالم لا تدوم سوى ثانية واحدة**. السيارة ترفعُ من سرعتها.

بعد قطع عدة كيلومترات من الشوارع والطرق المكتظة بالدراجات النارية الصغيرة، والدراجات النارية ثلاثية العجلات وسط حركة سيْر صارت أكثر تعقيداً بسبب العاصفة المعلنة، تعبُرُ سيارة «كامارو» البوابة المؤدية إلى الحظيرة الخاصة حيث تنتظرنا طائرة شحن حجزتها منظمة «Survival International». الرّيحُ عاتية إلى درجة أنها تسحبُ مخاريط الأمان في المضمار، وترفعها من الأرض. في مرقب الباب، بينما هيرنانْديث وفيرنانْديث يقدمان بطاقتيْ الشرطة لرجال أمن المطار، ألاحظُ حضور مجموعة أُناسٍ

جعلني مظهرهُم في حالة استنفار. متكئين عليهما أو جالسين فوق سطحيْ سيارتيْن من نوع «فورد موستانغ» بهيكليْن طُبعا بشعلات لهيب وبمحركين مُشغّليْن، قريباً من القضبان الواقية بعادمين مفتوحين ينفثان دخاناً تمتصه دوامات العاصفة، كان ثمانية من السكان الأصليين يرتدون ملابس حربية، أباتشي بوجه مصبوغ وشارة رأسية، وشخص خشن يضع أقراطاً في شفتيه، كلهم يحملون فؤوساً وسهاماً في أياديهم. وفوق رؤوسهم ريشٌ كبير أحمر لمحارب من قبائل سيوكس يهتزُّ في السماء المعتمة، ليمتزج بالبرق. إنهم «هنود الحواضر الكبرى»، سرعان ما فهمتُ. من بينهم، أتعرف على محاربِ كايابّو، بجسد عارٍ طُليَ عن آخره بصباغة جينيبّابو سوداء. الرجل الذي يشبه فهداً، بشعرٍ لامعٍ مقصوصٍ وبخصلةٍ فوق عينيه البيضاوين، يُحدقُ إليّ، وحين يوجّهُ قوسه وسهمه نحوي، يكشف عن ابتسامة مستفزة عريضة. تُقلعُ السيارة عبر الطريق المُبلّلة فأرافقُ المحاربَ عبر الزجاج الخلفي. يضرمُ المحاربُ النّارَ في طرف السهم ويطلقه بحركة بارعة نحو السحب القاتمة. يصعدُ السّهمُ، راسماً شكل قوس مكافئ بشعلته التي تخدش السماء، ويلتحق بالرّعد المدوّي هناك في الأعالي، إلى أن يختفي في الظلام.

مُفوّضُ الشرطة ينتظرني عند باب حظيرة الطائرات. يحييني هذه المرة، ويمدّ لي يدهُ. بعيداً في الخلف، أرى خمسين تابوتاً خشبياً وُضِعوا فوق سيارات نقل البضائع. عملٌ من إنجاز المازاتيكو، قال مُفوّضُ الشرطة، هم من نحتوا

خشب التوابيت تكريماً لضيوفهم. تعال لترى، إنه عمل رائع، تابع المُفوّض، وهو يأخذني من مرفقي نحو المكان حيث كان مستخدمو المطار ينقلون التوابيت من سيارات النقل إلى داخل طائرة **C-105 أمازونا** التي نالت منها عوامل الزمن وواجب نقل حمولة جنائزية كهذه. لكن ما الذي يمكن أن يقع؟ لقد كانوا جميعهم أمواتاً! كما كتبَ رئيسي في رسالته الأخيرة، ناسياً أن يضيف مرؤوسَهُ الذي ما زال على قيد الحياة، بالإضافة إلى طاقم يتكون فقط من الرُّبان ومساعده. ألاحظُ عمل الحمّالين فيصيبني الذعر، لأنَّ خوان إلْنيغْرو بينهم، بوجهه المعهود كالدُّب يغطي نصفه رفُّ القبعة التي يضعها مستخدمو شركة النقل. أقول في نفسي: إن عينيَّ الساهرتيْنِ تخدعانني، أمضيتا الليل مفتوحتيْن أمام حريق المنزل العائلي وهما الآن تخدعانني. إنهم متطوعون من المازاتيكو، يقول المُفوّض، الذي أصبح فجأة يقرأ أفكاري، وذلك لا يمكن أن يكون سوى ابن أخ إلْنيغْرو، إنهما يتشابهان كثيراً، أليس كذلك؟ انظر إلى النِّجارة الفنّية التي أنجزوها على التوابيت، إنها رائعة. حينئذ أتوقّفُ أمام النقوش التي توجد فوق كل مساحة التابوت أمامي، كما لو أنه جزء من قصة مصورة، مغامرة من مغامرات تان تان، ولم لا؟ إنها أزهار رائعة تمثل نباتات مقدسة وتحكي أسطورة المازاتيكو عن الحياة بعد الموت، أتعرّفُ شخصية سوتشيبيلي في وضعية بارزة. إنّه إله الأزتيك للأزهار المسكرة. إنّ المازاتيكو صناعٌ تقليديون بارعون في نقش الخشب، وغطاء التابوت نحتٌ حيّ، لكن ربما يكون ذلك خداعاً من

عينيّ. أرى وصول الخمسين كاجابُّوكوجي إلى هواوتلا، ومجهودهم في بناء المالوكا. وها أنا ذا قُربَ إلْنيغْرو الذي يبرز في الخشب الواضح للتابوت، ووجهانا الدقيقان يرقبان العمل الدؤوب للهنود ثم يظهران من جديد في طقس التِّنْسانهان في الغابة، تحاصرهما أرواح أسلافنا المنبعثة. وأخيراً، في الجزء الأسفل من الغطاء، يظهر الكاجابُّوكوجي الأموات مُصطفّين على شكل ساعة توقفت عقاربها عن الدوران. دقّةُ التفاصيل مُدهشة، كأنها مشهد درْبِ صليبٍ وثني، يقول المُفوّض كاشفاً عن نابِه الذهبي. ألاحظُ أنَّ هيرنانْديث وفيرنانْديث يلاحظان بعناية المنحوتات على التابوت المجاور، الأخير الذي شُحن. من يدري؟ ربما يبحثان عن نفسيْهما في المنحوتات. هما أصلعان بشوارب يشبهان أولئك المفتشين في القصص المصورة. عندما أودّعُ المُفوّض وأصعدُ سُلّم الركوب، تشتغلُ المحركات. كان الرّبان ومساعدُه قد جلسا في قمرة القيادة ولم أتمكن حتى من رؤية طرفيْ قبعتيْهما الخاصتيْن بالملاحة الجوية.

في الداخل، لاحظتُ أنّ طائرة الشحن كانت تتشكل من مقصورة واحدة. أنا جالس بداخلها، أدير ظهري للجدران الداخلية وقرب أكوام التوابيت المرتبة على شكل حاويات، تشدُّها أحزمةُ أمان في الخلف وأخرى في الأمام من أجل توازن الطائرة. لقد عاش الكاجابُّوكوجي مجتمعين وماتوا مجتمعين، عكس البيض الذين يعيشون متفرقين ولا يجتمعون إلا ساعة

الموت، أو قد لا يفعلون حتى هذا الأمر. قبل لحظات، وأنا أصافحُ يد مُفوّض الشرطة، همس لي مُسِرّاً أنَّ أحشاء رفقاء رحلتي قد أعيدت إلى مكانها، استجابةً لمطالب «هنود الحواضر الكبرى». لكن ثمة شيء غريب في تلك الجثامين، قال أو ربما يكون سنُّهُ الذهبي الفظيع هو من تحدّثَ الآن، نابُه الذهبي البارز الثرثار: إنها تستغرق وقتاً أطول من المعتاد لتتحلّل. همس لي المُفوّض ذلك في أذني، وهو يسحب ذراعي كي أقترب منه، ثم ودّعني. لم أجد وقتاً لأسأله عمّا يقصده بذلك. المحركاتُ التوربينية لطائرة **C-105 أمازونا** تزيدُ من سرعتها، أضعُ السماعات التي أحملُها دائماً في جيب سروالي. أبحثُ عن محطة إذاعية في تطبيق على هاتفي الخلوي. تقول نشرة الأخبار إنَّ العاصفة الرعدية قد تلاها هدوء، هدوء غير متوقع تماماً مثل العاصفة التي سبقته. علماءُ الأرصاد الجوية من مختلف جهات العالم يناقشون الظاهرة دون التوصل إلى أي استنتاج. وسط أخبار متضاربة حول أحوال الطقس، يبرزُ خبر عن مركبة تيانتانغ ١: تلقّى برج المراقبة في محطة بايكونور الفضائية مساعدة من قواعد مَرْكبات فضائية غربيّة وشرقيّة، ومع ذلك ظلّ دون مستجدات عن مكان وجود البعثة الصينية إلى المريخ. لكن، تمّ فكّ شفرات إشارة الراديو المتقطعة القادمة من الفضاء الخارجي، وكانت مجرد ضجيج ليس إلا. وأخيراً، خبرٌ جيد. كان صوت رائدة الفضاء الصينية بوجهها المدور وهي تقول، في بث يتكرر كل دقيقة: **كلُّ ثانية تنقضي معجزةٌ لن تتكرر أبداً.** ضجيج المحركات التوربينية

يصبحُ عالياً جداً إلى درجةٍ يستحيل معها سماع أي شيء. أطفئُ هاتفي الخلوي وتقلعُ الطائرة. كلُّ ثانية تنقضي معجزةٌ لن تتكرر أبداً، أفكّرُ.

ثلاث ساعات من الطيران تمُرُّ بهدوء. وبينما تعبُر الطائرة أجواء المكسيك، أحاولُ أن أستعيد ساعات النوم الذي احترقَ بكامله أثناء حريق المنزل العائلي. وأنا أستيقظُ، ألقي نظرة من النافذة المستديرة بجانبي: تبدو السماءُ مرجاً شاسعاً أزرق، من دون غيوم ولا تلال. مكان هادئ. أفركُ عينيّ ولا أذكر إن حلمتُ بشيء، أو حتى إن تمكنتُ من الخروج من النوم. لمدة ثانية واحدة، أفكّرُ في الذهاب إلى الحمام وأمرُّ بعد ذلك إلى مقصورة القيادة كي أقدم نفسي أخيراً. وأنا أتأهّبُ لفتْح مِغلاق حزام السلامة، تحدُثُ رجّةٌ جعلت الطائرة ترتجِفُ كأنّها حافلة دخلت للتو في طريق متربة شديدة الوعورة. تحدُثُ رجّةٌ أخرى، قوية هذه المرة حتى إنّها تمزق الحزام الذي يشدّ الصفّ الأول من كومة التوابيت. واحد منها، ذلك الذي في أعلى الكومة، ينقذفُ بكل عنف نحو الأعلى، ليرتطم بسقف الطائرة. وهو يسقط على أرضية المقصورة، ينكسرُ غطاؤه ومن داخله تخرج متدحرجةً جثةُ رجل من الكاجابُّوكوجي. أتعرّفُ فوراً ابنَ بووافينْتورا، الذي يرفعُ رأسه وينظر إليّ مذهولاً. يضعُ يده على جبينه ويرجّه، كأنه يحاول أن يتخلّص من كابوس. كما لو أنَّ الموت لا يعدو أن يكون طنين ذبابة مزعج. تشتدّ المطبّات الجوية، فيحاول الرّجُل الكاجابُّوكوجي أن يستمرّ

واقفاً على قدميه، شبه أحدب مثل رائد فضاء مركبة تيانتانغ ١ في الصورة، لكنه يسقط ثانية على الأرضية حيث تتناثرُ التوابيت بسرعة، وهي تنقذف بشكل خطير مع كل اهتزاز يصيب الطائرة. كاد أحدُها أن يصطدم بي على بعد بضعة سنتمترات فقط. بدأ صوتُ الرّبان يُسمعُ وسط صرير جهاز الاتصال الداخلي، يُخبر بأنّ ظاهرة غامضة تحدث على الأرض في هذا الوقت بالذات، وأنَّ العاصفة الرعدية كانت على ما يبدو مقدمة لشيء أفظع، تَحطُّمُ الغلاف الجوي للأرض على نطاق كبير. لقد تعرضت الأرض لاصطدام رهيب، قال الرُّبانُ، إنها كارثة. يُجرجرُ الرّجُل الكاجابُّوكوجي نصف حدَبَته حتى يبلغ مقعداً بالقرب من مقعدي، ثم يشدُّ حزام السلامة حتى لا يسقط مرة أخرى. أنتبهُ إلى خيوط دم يسيلُ من أنفه. ينظرُ عبر النافذة المستديرة بعينيه اللتيْن تشبهانِ عينيْ رائد الفضاء الصيني، فأُقلّدُه لأرى هناك في الأسفل الأرضَ تتكسّرُ شعلاتِ لهيب، وصفائحها التكتونية تتفكّكُ كأنّها مركبةٌ عظيمة تناثرت أجزاؤها أخيراً في الفضاء الخارجي، مركبةٌ لن يكتمل أبداً تركيبها، رغم أنّها كانت مُركّبةً في يوم من الأيام. ومن مركز الكوكب تبرزُ كرةٌ نارية هائلة يشتدُّ سعيرها ثم تنطفئ، مبتلعةً كل شيء. عبر جهاز الاتصال الداخلي، يُخبرُ صوتُ الرّبان أنَّ الطائرة لم يعد لها من مكان تحطُّ فيه، وأنَّ الوقود لا يسمح سوى لمدة ساعة أخرى من التحليق.

يعود الهدوء وتتابعُ الطائرة مسارها دون وجهة، بينما

ألاحظُ تعابير الدهشة على وجْهِ الكاجابُّوكوجي وهو ينظرُ إلى المنظر المحترق تحتنا هناك في الأسفل، وانعكاس مُحمَرّ لألسنة اللهب في عينيه المحدّقتين في العالم الذي يختفي تحت الصمت والرماد، كما لو أنّه مجرد موسيقى قادمة من مكان غير معلوم لتلمس قلوبنا مباشرة قبل أن تختفي، فأرى حينئذ، مُنعكسيْن في حدقتيْه السوداويْن جداً، البارزتيْن من أعماق الظلام الدامس، الموتَ والنيْزكَ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الموت والنيزك

جوكا رينيرس تيرون

ابتكر جوكا رينيرس تيرون، في روايته الموت والنيزك، مغامرة أدبية معقدة ومدهشة، تتناول قصة نهاية قبيلة "الكاجابوكوجي" الأمازونية، والتي تعيش في أجواء من العزلة والغموض عن العالم، وذلك بسبب المحاولات المستمرة لتدمير أرضها وسُبل عيش أفرادها، مما جعلهم عرضة للانقراض.

(الناشر).

ما تقوله رواية الموت والنيزك هو: نهاية الكاجابوكوجي ستكون نهايتنا جميعاً.

(مؤسسة غلوبو الإخبارية).

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار الخان للنشر والتوزيع
info@daralkhan.com
@daralkhan_kw